

الكتاب الأول

ملكة غرناطة

منذ قيامها حتى عصر السلطان أبي الحسن

٦٣٥ - ١٧١ هـ : ١٢٣٨ - ١٤٦٦ م

الفصل الأول

الأندلس الغاربة

دول الطوائف . المرابطون . سقوط القواعد الأندلسية في يد النصارى . شعور أهل الأندلس بمصيرهم . مدينة غرناطة . صفتها أيام الدولة الإسلامية

يقدم إلينا تاريخ الأندلس في مراحلها الأولى صفحات باهرات من ضروب المجد الحربى والسياسى ، وآيات ساطعات من ضروب التمدن والعرفان ، ولكنه يقدم إلينا في مراحلها الأخيرة صفحات مشجية مؤثرة من تقلب الحدود ، وتعاقب المحن ، والانحدار البطيء المؤتم إلى معترك الهزيمة ، والذلة والسقوط .

ولا تمثل قصة الأندلس سوى الحقيقة التاريخية الخالدة ، وليس مجرى التاريخ سوى تعاقب الأجيال والأمم ، وتبدل الحضارات والدول . ولكن الصراع الطويل المضطرم الذى خاضته الأمة الإسلامية فى الأندلس ، قبل أن تستسلم إلى قدرها المحتوم ، يبدو فضلا عما يحف به من ألوان البطولة الخالدة ، صفحة رائعة من الاستشهاد المؤثر ، قلما يقدمها إلينا تاريخ أمة من الأمم التى اشتهرت بالذود عن حياتها وحرقاتها .

وقد سقطت قواعد الأندلس الشهيرة فى سلسلة من المعارك والمحن الطاحنة التى تقلبت فيها الأمة الأندلسية منذ انهار صرح الخلافة الأموية فى الأندلس فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وقامت دول الطوائف الصغيرة المفككة على أنقاض دولة عظيمة شامخة . وكان سقوط كل قاعدة من هذه القواعد الشهيرة التى كانت تسطع بمجتمعاتها وحضارتها الزاهرة خلال حلك العصور الوسطى ، يمثل ضربة مميتة للدولة الإسلامية فى الأندلس ، ويحدث أعمق صدى فى جنبات الدول الإسلامية فى الشرق والغرب ، وينتزع من وحي النثر والنظم أروع المراثى . وكانت الأمة الأندلسية كلما سقطت قاعدة من قواعد الشهيرة فى يد عدوتها القديمة المتربصة بها — اسبانيا النصرانية —

ألفت عزاءها في قواعدها الأخرى ، وهرع معظم السكان المسلمين إلى تلك القواعد الإسلامية الباقية ، إستبقاء لحرّياتهم ودينهم وكرامتهم ، حتى لم يبق من تلك القواعد الشهيرة سوى غرناطة وأعمالها ، تولى مملكة إسلامية صغيرة ، ولكن أبية ساطعة ، استطاعت عبقرية بناتها النصرين أن تسيّر بها خلال العاصفة أكثر من مائتي عام .

والحقيقة أن مصير الأندلس كان يهتز في يد القسدر مذ فشلت ريح دول الطوائف وغلب عليها الخلاف والتفرق ، وانحدرت إلى معترك الحرب الأهلية تفسح لعدوها الخطر مجال التفوق عليها والضرب والتفريق بينها . وقد استطاع بعض ذوى النظر الثاقب من رجالات الأندلس ، حتى في ذلك العصر الذى كان الإسلام يسيطر فيه على معظم أنحاء شبه الجزيرة الإسبانية ، أن يستشفوا ما وراء هذا التفرق من الخطر الدايم . ففرى ابن حيان مؤرخ الأندلس في القرن الخامس الهجرى يقول لنا بعد أن يصف حوادث سقوط بربشتر من أعمال الثغر الأعلى (أرجوان) في يد النصرارى في سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) وما اقترن بسقوطها من القتل والسبي وشنيع الاعتداء : « وقد أشفينا بشرح هذه الحالة الفادحة مصائب جليلة مؤذنه بوشك القلعة طالما حذر أسلافنا لحاقها بما احتملوه عن قبلهم من آثاره . ولا شك عند ذوى الأبواب أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أمرنا بالتواصل والألفة فأصبحنا من استشعار ذلك والتجارى عليه على شفا جرف يوئدى إلى الهلكة لا محالة » . ويندد ابن حيان بعد ذلك بتواكل أهل الأندلس وتخاذلهم عن نصره دينهم وإخوانهم (١) . بل لقد لاح مدى لحظة حينما سقطت طليطلة أول قاعدة إسلامية كبيرة في يد اسبانيا النصرانية في سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) أن الأندلس أضحت على وشك الفناء ، وأن دول الطوائف المهوكة الممزقة سوف تسقط تبعاً في يد عدوها القوى ، وأن دولة الإسلام في اسبانيا سوف تطوى وتختتم حياتها المحيطة في شبه الجزيرة . وقد ساد الفزع والتوجس يومئذ جنيات الأندلس كلها ، حتى قال شاعرهم حينما سقطت طليطلة :

فما المقام بها إلا من الغلط
سلك الجزيرة منشوراً من الوسط
كيف الحياة مع الحيات في سفظ

يا أهل أندلس شدوا رحالكم
السلك ينثر من أطرافه وأرى
من جاور الشر لا يأمّن بوائقه

(١) زنج الطيب (ص) ج ٢ ص ٥٧٦ .

ولكن الدرس كان عميق الأثر ، فجنح زعماء الطوائف إلى الرشاد ، وجمعت المحنة منهم الكلمة ، وارتدوا إلى ما وراء البحر يلتمسون الغوث إلى « المرابطين » إخوانهم في الدين . وكان المرابطون يومئذ في عنفوان دولتهم ، وأميرهم يوسف بن تاشفين يسطر سلطانه القوى على أمم المغرب من المحيط غرباً حتى تونس شرقاً . فاستجاب المرابطون إلى صريخ الطوائف ، وعبروا البحر إلى الأندلس في قوات ضخمة ، والتقت جيوش الإسلام المتحدة بقيادة يوسف بن تاشفين ، بالجيوش النصرانية المتحدة بقيادة الفونسو السادس زعيم اسبانيا النصرانية ، في سهول الزلاقة في رجب سنة ٤٧٩ هـ (اكتوبر سنة ١٠٨٦ م) فأحرز المسلمون نصراً عظيماً ؛ وكانت موقعة الزلاقة من أيام الأندلس المشهورة ، وانتعشت دول الطوائف ، وقويت نفوس الأمة الأندلسية ، وبدأت الأندلس حياة جديدة . ولكن سرعان ما انقلب المرابطون على إخوانهم وحلفائهم ، واجتسدت بهم نعماء الأندلس وثرواتها ، فحطموا دول الطوائف وبسطوا حكمهم على الأندلس زهاء نصف قرن . ولما سقطت دولتهم في المغرب وقامت على أنقاضها دولة الموحدين ، عبر الموحدون البحر إلى اسبانيا ، وافتتحوا الأندلس وبسطوا عليها حكمهم زهاء قرن آخر . وفي ظل الموحدين أحرزت اسبانيا المسلمة كما أحرزت في الزلاقة أيام المرابطين ، نصرها الحاسم على اسبانيا النصرانية بقيادة يعقوب المنصور ملك الموحدين وذلك في موقعة الأرك الشهيرة (٥٩٣ هـ - ١١٩٥ م) (١) . ولكنها ما لبثت أن لقيت هزيمتها الحاسمة بعد ذلك بقليل على يد اسبانيا النصرانية في موقعة العقاب المشهورة (٦٠٩ هـ - ١٢١٢ م) (٢) . وكانت هزيمة العقاب ضربة شديدة لسلطان الموحدين ولاسبانيا المسلمة ، فعاد شبح الفناء يلوح للأندلس قوياً منذراً ، وسرى هذا التوجس إلى كتاب العصر وشعرائه ، وظهر واضحاً في رسائلهم وقصائدهم . ومن ذلك ما قاله أبو اسحق ابراهيم بن الدباغ الإشبيلي معلقاً على موقعة العقاب :

وقائلة أراك تطيل تفكراً كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لها أفكر في عقاب غداً سبباً لمعركة العقاب
فما في أرض أندلس مقام وقد دخل البلا من كل باب (٣)

(١) وتعرف في الاسبانية بموقعة Alarcos

(٢) وتعرف في الاسبانية بموقعة Las Navas di Tolosa

(٣) نصح الطيب ج ٢ ص ٥٨٢ .

وفي خلال ذلك كانت الأندلس تضطرم بأشنع ضروب الخلاف والفتن ، والقواعد والثغور يتناوبها الزعماء والمتغلبون ، واسبانيا النصرانية تنزل بالأندلس ضرباتها المتوالية ، وتستولى تباعاً على القواعد والثغور : سرقسطة (٥١٢ هـ - ١١١٨ م) وتطيلة (٥٢٤ هـ - ١١٣٠ م) وطرطوشة ولاردة وأفراغة (٥٤٢ هـ - ١١٤٨ م) وأشبونة (٥٤١ هـ - ١١٤٧ م) وجزيرة ميورقة (٦٢٧ هـ - ١٢٢٩ م) وماردة ويطليوس (٦٢٨ هـ - ١٢٣٠ م) وأبده (٦٣١ هـ - ١٢٣٣ م) وقرطبة (٦٣٣ هـ - ١٢٣٦ م) وبياسة وإستجة والمدور (٦٣٤ هـ - ١٢٣٧ م) وبلنسية (٦٣٦ هـ - ١٢٣٨ م) وشاطية ودانية (٦٣٨ هـ - ١٢٤٠ م) ولقنت وأريولة وقرطاجنة (٦٤٠ هـ - ١٢٤٢ م) ومرسية (٦٤١ هـ - ١٢٤٣ م) وجيان (٦٤٤ هـ - ١٢٤٦ م) وإشبيلية (٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م) . وهكذا لم يأت منتصف القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي) حتى كانت ولايات الأندلس الشرقية والوسطى كلها قد سقطت في يد اسبانيا النصرانية ، ولم يبق من تراث الدولة الإسلامية بالأندلس سوى بضع ولايات صغيرة في طرف اسبانيا الجنوبي .

وأخذت الأندلس عندئذ تواجه شبح الفناء مرة أخرى ، وطافت بالأمة الأندلسية التي احتشدت يومئذ في الجنوب في بسيتها الضيق ريح من التوجس والفرع ، وعاد النذير يهيب بالمسلمين أن يغادروا ذلك الوطن الخطر ، الذي يتخاطف العدو أشلاءه الدامية ، وسرى إلى الأمة الأندلسية شعور عميق بمصيرها المحتوم .

ولكن شاء القدر أن يرجىء هذا المصير بضعة أجيال أخرى ، وشاء أن يسبغ على الدولة الإسلامية بالأندلس حياة جديدة في ظل مملكة غرناطة التي استطاعت أن تبرز من عمر الفوضى ضئيلة في البداية ، وأن توطد دعائم قوتها شيئاً فشيئاً وأن تدود عن الإسلام ودولته الباقية بنجاح أكثر من قرنين . وكان من حسن طالع هذه المملكة الإسلامية الصغيرة أن شغلت عدوتها القوية اسبانيا النصرانية مدى حين بمنازعتها وحروبها الداخلية ، فلم توفق إلى تحقيق غايتها الكبرى وهي القضاء على دولة الإسلام في الأندلس وعلى الأمة الأندلسية بصورة نهائية ، إلا بعد أن تهيأت لذلك جميع الظروف والأسباب . ولم يكن ذلك قبل مائتين وخمسين عاماً عاشتها مملكة غرناطة الصغيرة أيبة كريمة ، ترفع لواء الإسلام عالياً في تلك الربوع ، التي افتتحها الإسلام

قبل ذلك بعدة قرون، ونحمرها المسلمون بأروع وأرفع ضروب العلوم والفنون التي عرفت في العصور الوسطى .

— ٢ —

كانت غرناطة وقت افتتاح الأندلس مدينة صغيرة من أعمال ولاية « إلبيرة » تقع على مقربة من مدينة إلبيرة قاعدة الولاية من الناحية الشمالية ، افتتحها المسلمون عقب انتصارهم على القوط بقيادة طارق بن زياد فاتح الأندلس في موقعة شريش في رمضان سنة ٩٢ هـ . (يولييه سنة ٧١١ م) . ولما اضطرت الفتنة بالأندلس ، ودب الخلاف بين القبائل ، عقب موقعة بلاط الشهداء (٧٣٢ م) واشتد التنافس على الإمارة بين الشاميين من ناحية ، والعرب والبربر من ناحية أخرى ، رأى أمير الأندلس أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي أن يعمل على تهدئة الفتنة بتمزيق عصبة الشاميين ، ففرقهم في أنحاء الأندلس ، وأنزل جند الشام بكورة إلبيرة ، وجند حمص بإشبيلية ، وجند فلسطين بشذونة والجزيرة ، وجند الأردن بربة ، وهكذا نزل الشاميون منذ البداية بولاية إلبيرة ، وغدوا بمضى الزمن كثرة فيها . واستمرت مدينة إلبيرة قاعدة لهذه الولاية ومركز قضائها في ظل الدولة الأموية ، حتى أواخر القرن الرابع حينما انهارت الخلافة الأموية وتعاقت الفتن ، وعات البربر في النواحي ، وخربت مدينة إلبيرة شيئاً فشيئاً حتى غدت غرناطة قاعدة الولاية مكانها ، وغلب اسم غرناطة على الولاية نفسها ، ومن ذلك الحين يختفي اسم إلبيرة كقاعدة من قواعد الأندلس ويذكر مكانها اسم غرناطة . والواقع أن إلبيرة وغرناطة تعتبران في معظم الأحيان ولا سيما في المراحل الأولى لتاريخ الأندلس اسمين لمكان واحد ، وقد جرى كثير من المؤرخين والجغرافيين على المزج بينهما (١) .

وغرناطة أو أغرناطة اسم قديم يرجع إلى عهد الرومان والقوط، ويقال إنه مشتق من الكلمة الرومانية Granata أي الرمان ، وإنها سميت كذلك لحماها ولكثرة جدائق الرمان التي تحيط بها (٢) . والواقع أن غرناطة تتمتع بموقع فائق في الحسن ،

(١) كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة ، لابن الخطيب (مصر) ج ١ ص ١٢ — ١٨

(٢) المستشرق سيبولد في : Ency. de l'Islande : Grenade ؛ وكذلك في معجم ياقوت في « غرناطة » . وقيل إنها سميت كذلك لأنها أنشئت على البقعة التي زرع فيها الرمان لأول مرة عند نقله من إفريقيا إليها، وقيل أيضاً لأنها سميت كذلك لأنها بموقعها وانقسامها على التلين تشبه بمنازلها الكشافة الرمانية المشفوقة . راجع كتاب : (Prescott : Ferdinand and Isabella, p. 190, Note)

فهى تقع على الضفة اليمنى لنهر « كثنيل » أحد فروع الوادى الكبير ، ويخترقها فرعه المسمى نهر داتزو (أو نهر هدارة أو حدارة) ويلتقى به عند جنوبي غرناطة . وتشرف غرناطة من الجنوب الغربى ، على بسيط شاسع أخضر وافر الحصب هو المرج أو الفحص الشهير La Vega (١) الذى يمتد غرباً حتى مدينة لوشة ، ومن الجنوب الشرقى على جبال سيرانيفادا Sierra Nevada (جبل شلير) التى تغطى آكامها الثلوج الناصعة . وكانت غرناطة أيام الدولة الإسلامية جنة من جنات الدنيا ، تغص بالغياض والبساتين اليانعة التى كانت لوفرة خصبها وروعة نضرتها تعرف « بالحنسان » فيقال للمزرعة أو البستان « جنة كذا » أو جنة فلان ، مثل جنة الحرف وجنة ابن عمران وجنة العريف وغيرها . وقد ذكر ابن الخطيب أن هذه الحنان الغرناطية الشهيرة كانت تبلغ فى عصره زهاء المائة ، كما ذكر لنا أن منطقة غرناطة كانت تضم زهاء ثلاثمائة قرية عامرة ، منها ما كان يبلغ سكانه الألوف ومنها ما كان يملكه مالك واحد أو ملاك قلائل . هذا عدا الأملاك السلطانية والحصون . وبذلك نستطيع أن نقدر أن مدينة غرناطة كانت تضم أيام أن كانت عاصمة للدولة الإسلامية أكثر من نصف مليون من الأنفس ، وأما خارج المدينة فيصفه ابن الخطيب فى قوله :

« ويحف بسور المدينة البساتين العريضة المستخلصة ، والأدواح الملتفة ، فيصير من ذلك خلف سسياج تلوح نجوم الشرفات البيض أثناء خضراته ، فلاتعرى جهة من جهاته عن الحنات والكروم والبساتين » . وأما المرج الشهير أو الفحص La Vega فقد كان بسيطاً رائع الخضرة يشبهونه بغوطة دمشق ، وتخترقه الحداول والأنهار ، ويغص بالقرى والحنات ، ويهرع إليه الرواد فى ليالى الربيع والصنف فيغدو مسرح الأسمار والأنس . وكانت المدينة ذاتها نموذجاً بديعاً للعمارة الإسلامية ، تغص بالصروح والأبنية الفخمة ، وتنخللها الميادين والطرق الفسيحة . وكانت مدينة الحمراء أو دار الملك أروع ما فيها ، تطل على أحيائها « فى سمت من القبلة تشرف عليه منها الشرفات البيض ، والأبراج السامية والمعازل المنيعة ، والقصور الرفيعة ، تغشى العيون ، وتبهر العقول » (٢) .

(١) وهى كلمة إسبانية معناها المرج ، ولعلها كانت مشتقة من كلمة « فخص » العربية .

(٢) راجع الاطاحة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ٣٢، ٣٣، ٣٥ ، واللحة البدرية فى تاريخ الدولة

النصرية لابن الخطيب أيضا ص ١٣ و ١٤ .

وقد أشاد بذكر محاسن غرناطة وفضائلها كتاب الأندلس وشعراؤها ، وانتهت
إلينا من منظومهم ومنثورهم فيها تراث حافل ، يتم بالرغم مما يحمله أحيانا من طابع
المبالغة ، عما كانت تثيره غرناطة في نفوسهم من عميق الإعجاب والحب . وقد أورد لنا
ابن الخطيب في « الإحاطة » والمقرى في « نفع الطيب » و « أزهار الرياض » كثيراً
من هذه القصائد والرسائل وإليك بعض نماذج منها :

قال ابن الخطيب :

بلاد تحف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة ومن الحسور المحكمات سواره
وقال أبو الحجاج يوسف بن سعيد :

أغرناطة العلياء بالله خبري وما شاقني إلا نضارة منظر
وأعلامه نجد والسكينة قد علت وقد سل شنيل فرندا مهنسدا
واللهائم الباكي إليك طريق وبهجة للعيون تروق
ومد من الحمراء عليك شقيق وللشفق الأعلى تلوح بروق
يضيء فوق درّ ذرفيه عقيق وقال آخر :

غرناطة ما لها نظير ما مصر ما الشام ما العراق
ما هي إلا العروس تجلي والأرض من جملة الصداق

أما اليوم فقد غدت غرناطة مدينة متواضعة لا يزيد سكانها على ثمانين ألفاً ،
وقد زال عنها بهاؤها السابق ، ولكن بقيت بها بعض صروحها ومعالمها القديمة .
وأعظم آثارها الباقية منذ أيام المسلمين هو بلا ريب قصر الحمراء الملوكي الذي مازال
يحتفظ بكثير من روعته القديمة ، وقصر جنة العريف الواقع في شرقيه ، وقد كان
مضيفاً للملوك غرناطة وقصر شنيل ، وقد كان مقاماً للملكات غرناطة . أما المسجد الجامع
وبقية المساجد الأخرى فقد حولت كلها إلى كنائس . وما زالت بقية من معالمها
القديمة مثل حي البيّازين الواقع في غربها ، والقصبة القديمة ، والميدان الكبير الذي
ما زال يحمل اسمه القديم « رحبة باب الرملة » Plaza di Bibramlla

كذلك بقيت بعض أبوابها القديمة مثل باب البنود ، وباب البيرة ، وباب

البيازين ، وباب فج اللوزة . وما زالت « قنطرة شنيل » قائمة على النهر عند التقائه بفرعه حدارة وتحمل اسمها القديم Puente del Genile . وما يجدر ذكره أن غرناطة الحديثة ما زالت ، بالرغم مما توالى عليها من الحطوب والأحداث ، تحتفظ بكثير من تقاليدھا العلمية والثقافية القديمة ، فهي مركز جامعة غرناطة الشهيرة التي أسسها الامبراطور شرلكان سنة ١٥٣١ ، وبها عدة معاهد ثقافية ، ومتاحف فنية وأثرية .

الفصل الثاني

نشأة مملكة غرناطة

وقيام الدولة النصرية

غرناطة منذ عهد الفتنة حتى عهد الموحدين . اضمحلل دولة الموحدين بالاندلس . ظهور ابن هود وثورته على الموحدين . استيلاؤه على مرسية . دعاؤه للخلافة العباسية . الحرب بين ابن هود وبين النصارى . هزيمة ابن هود . زحف النصارى على قرطبة . استغاثتها بابن هود . ابن هود يؤثر السير الى بلنسية . حصار قرطبة وسقوطها في يد النصارى . وفاة ابن هود . غزو ملك أراجون لبلنسية واستيلاؤه عليها . استيلاء القشتاليين على مرسية . أحوال جنوبي الأندلس . ظهور محمد بن الأحمر . طاعة القواعد الجنوبية له . دعوته لصاحب افريقية . تحالفه مع الباجي وغدره به . دخول جيان ومالقة وشريش في طاعته . الثورة في غرناطة . دعوتها لابن الأحمر واستيلاؤه عليها . استيلاؤه على المريه . بنو اشقيلولة أصهار ابن الأحمر . قيام مملكة غرناطة . افتراق كلمة الأندلس . خضوع القواعد الشرقية للنصارى . غزو ابن الأحمر لمروطوش . غزو فرديناند الثالث لأراضى ابن الأحمر وحصاره لغرناطة . خضوع ابن الأحمر لفرديناند وتعهد به بأداء الجزية . سقوط القواعد الغربية في يد النصارى . تأهب فرديناند لافتتاح اشبيلية . استيلاؤه على قرمونة . حصار اشبيلية . معاونة ابن الأحمر للنصارى . قصيدة ابن سهل في استصراخ أهل العدة . سقوط اشبيلية في يد النصارى . سقوط باقى القواعد الغربية . ابن الأحمر ودقة موقفه . اتجاهه الى عون بنى مرين . الحرب بينه وبين النصارى . سقوط استجة . هزيمة ابن الأحمر . صدى صريخ الأندلس في المغرب . نزول ابن الأحمر عن شريش والقلعة وغيرها . صدى سقوط القواعد الأندلسية . مرثية أبى البقاء الرندى . ثورة بنى اشقيلولة بمالقة . غزو النصارى للجزيرة الخضراء . صفات ابن الأحمر وخلاله . كيف يصورها النقد الحديث . وفاة ابن الأحمر .

لبثت غرناطة في ظل الدولة الأموية قاعدة متواضعة من قواعد الأندلس الجنوبية ، وهي تحتل مكان إلبيرة شيئاً فشيئاً ، حتى كانت أيام الفتنة عقب انهيار الدولة الأموية في أواخر القرن الرابع ، فأخذت القواعد الجنوبية تغدو بعد تخريب

قرطبة ونأى القواعد والثغور الشرقية والشالية، مركز التجاذب والتنافس بين زعماء الفتنة. ووقعت غرناطة يومئذ في نصيب البربر، واستولى عليها زعيم صنهاجة زاوي بن زيري واتخذها دار ملكه، وقامت في قرطبة دولة بني حمود البربرية. واستمرت الحرب والفتنة مدى حين سجلا بين المتغلبين من فلول بني أمية وفتياتهم ومواليهم، وبين زعماء البربر. ولما ظهر المرتضى وهو من عقب بني أمية ودعا لنفسه بالخلافة، سار في عصبة الأمويين والموالي إلى غرناطة لانتزاعها واتخاذها دار ملكه، فرده عنها صاحبها زاوي الصنهاجي في موقعة دموية (٤٠٨ هـ). واستقر زاوي في حكم غرناطة وأعمالها بضعة أعوام ثم غادرها إلى دار قومه في تونس، واستخلف عليها ابن أخيه حبوس بن ماكسن فحكمها حتى توفي في سنة ٤٢٩ هـ. وخلفه في ولايتها ولده باديس وتلقب بالمظفر، واستولى على مالقة من يد الأدارسة (بني حمود) واتسع ملكه، وليت طول حكمه الذي استطال حتى سنة ٤٦٧ هـ. في قتال مستمر مع بني عباد أمراء إشبيلية أعظم وأقوى ملوك الطوائف يومئذ. ولما توفي باديس المظفر خلفه في حكم غرناطة وأعمالها، حفيده عبد الله بن بلكين بن باديس، واستمر في حكمها إلى أن عبر المرابطون البحر إلى الأندلس في سنة ٤٨٣ هـ، بقيادة عاهلهم يوسف بن تاشفين، واستولوا عندئذ على غرناطة كما استولوا على قواعد الأندلس الأخرى، وانتهت بذلك دول الطوائف التي قامت على انقراض الخلافة الأموية وعاشت زهاء ستين عاماً.

واستمر المرابطون في حكم الأندلس وقواعدها زهاء ستين عاماً أخرى، وتعاقب في حكم غرناطة عدة من أمراء اللمتونيين (١) وسادتهم من قرابة يوسف بن تاشفين؛ فلما انهارت دولتهم في إفريقية، جاز الموحدون المتغلبون على دولتهم إلى الأندلس في سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٦ م) وأخذوا يستولون تباعاً على القواعد والثغور، وسقطت غرناطة في أيديهم بعد ذلك بثلاثة أعوام، في سنة ٥٤٣ هـ (أواخر سنة ١١٤٨ م) وذلك بالرغم مما بذله المرابطون بقيادة قائدهم الشهير يحيى بن غانية وحلفاؤهم النصارى من جهود فادحة للدفاع عنها.

وليثت غرناطة كباقي القواعد الأندلسية في يد الموحدين، يتناوب حكمها الأمراء والسادة من بني عبد المؤمن وقرابته، حتى كانت ثورة أبي عبد الله محمد بن يوسف

(١) لمتوبة هو اسم القبيلة التي ينتمي إليها المرابطون، ولذا يسمون أحياناً باللمتونيين.

ابن هود سليل بنى هود أمراء سرقسطة السابقين على الموحدين . وانزاعه معظم قواعد الأندلس من أيديهم .

وذلك أنه لما توفى أبو يعقوب يوسف المستنصر بالله سلطان الموحدين في سنة ٦٢٠ هـ دون عقب ، قام ابن أخيه أبو عبد الله محمد ولد يعقوب المنصور بالأندلس وأعلن نفسه أميراً على بلنسية ، باسم العادل بالله . وقام أخوه أبو علي ادريس في إشبيلية واتخذ لقب المأمون ، وبسط سلطانه على الأندلس . ولما توفى أخوه العادل أمير بلنسية قتيلاً بيد الثوار بعد ذلك بأربعة أعوام (٦٢٤ هـ) خلفه في رياستها . وولى عليها أخاه السيد أبا عبد الله ليحكمها من قبله . ثم شغل المأمون في الأعوام القلائل التالية بالعمل على توطيد سلطانه بالمغرب ، واستبد بالحكم واستعمل العنف المثير ، وقضى على رسوم المهدي وتعاليمه ونظام حكومته ، باعتبارها نظاماً رجعية ، لا تتفق مع روح الدين الصحيح ، فسرت روح السخط بين القبائل ، وأخذ الزعماء المتوثبون يرقبون الفرص . وبينما كان المغرب يضطرم بعوامل الثورة على هذا النحو والمأمون يشغل بقمع الخوارج عليه ، كان سلطان الموحدين بالأندلس يضطرب في الوقت نفسه ويتداعى بسرعة وينهار حكمهم تبعاً .

في تلك الآونة ظهر ابن هود يدعو إلى دعوة جديدة ، تمثل فيها روح الأندلس الحقيقية ، وهي وجوب العمل على تحرير الأندلس من نير الموحدين والنصارى معاً . وكان المأمون حينئذٍ اشتد عليه الأمر بالأندلس قد تحالف مع ملك قشتالة وتنازل له عن عدد من القواعد والحصون ، وتعهد بأن يمنح النصارى في أراضيهم امتيازات خاصة وذلك لقاء معاونة ملك قشتالة له على محاربة خصومه . وكان تحالف الموحدين مع النصارى على هذا النحو يسبغ على دعوة ابن هود قوة خاصة ، ويدفع الأندلسيين إلى الانضواء تحت لوائه . وظهر ابن هود لأول مرة في أحواز مرسية في سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) في الوقت الذي أخذ فيه سلطان الموحدين يضطرب ويتصدع في الثغور والنواحي ، ثم أغار على مرسية في عصبته القليلة ، واستطاع أن ينتزعها من يد حاكمها السيد أبي العباس . وأخذ نجمه يتألق من ذلك الحين ، فأعلن أنه يعتزم تحرير الأندلس من الموحدين والنصارى معاً ، والعمل على إحياء الشريعة وسننها ، ودعا للخلافة العباسية ، وكاتب الخليفة المستنصر العباسي ببغداد ، فبعث إليه بالجلع والمواسم ،

obeikandi.com

وتلقب بالمتوكل على الله . ولم يمض سوى قليل حتى دخلت في طاعته عدة من قواعد الأندلس ومنها جيان وقرطبة وماردة ويطليوس ، ثم استطاع أن ينتزع غرناطة قصبة الأندلس الجنوبية من المأمون في سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) .

وفي العام التالي (٦٢٩ هـ) توفي المأمون ملك الموحدين وهو في طريقه إلى مراکش ليعمل على إنقاذ عرشه من المتغلبين عليه . وبينما كان سسلطان الموحدين بالأندلس يدنو سراعاً من نهايته ، كانت دولتهم بالمغرب تدخل في دور الانحلال في ظل نفر من الأمراء الضعاف ، ثم تختم حياتها بعد ذلك بنحو أربعين عاماً في سنة ٦٦٨ هـ لتقوم على انقاضها دولة بني مرين .

واستمر ابن هود حيناً يخوض مع الموحدين والنصارى معارك متعاقبة . ونشبت بينه وبين فرديناند الثالث ملك قشتالة في ظاهر ماردة معركة انتهت بسقوط ماردة ويطليوس في يد النصارى في سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) . وانتهز فرديناند الثالث ملك قشتالة تلك الفرصة التي اضطرت فيها المملكة الإسلامية كلها بنار الحرب الأهلية ، فسير قواته لمقاتلة ابن هود ، وقد كان يبدو في نظره يومئذ زعيم الأندلس الحقيقي . وكان ابن هود قد استطاع في تلك الآونة أن ييسط سلطانه على الولايات والشواطئ الجنوبية فيما بين الجزيرة الخضراء والمرية وفيما بين قرطبة وغرناطة ، وكان يرى في مقاتلة النصارى عاملاً لتدعيم دعوته وسلطانه ، فسار للقائهم والتقى الجيشان في فحوص شريش على ضفاف نهر وادي لكّة ، ولكن ابن هود هزم بالرغم من تفوقه في العدد (أواخر ٦٣٠ هـ - ١٢٣٣ م) وسار فرديناند بعد ذلك لاجتياح أبده فسقطت في يده بعد حصار قصير (٦٣١ هـ - ١٢٣٤ م) .

على أن سقوط قرطبة كان أعظم ضربة نزلت يومئذ بالأندلس . وكان ابن هود عقب هزيمته في شريش قد جمع قواته وسار لقتال خصمه ومنافسه الحديد محمد ابن الأحمر في أحواز غرناطة ، وألنى النصارى من جانبهم الفرصة سانحة للزحف على قرطبة . وكان الأمر فيها فوضى وليس فيها من يجمع الكلمة ، ويتزعم الدفاع . وفاجأ القشتاليون بعض أبراجها في البداية ، ولكنهم رأوا أن الاستيلاء عليها ليس بالأمر السهل ، ولا بد لتجقيقه من قوات ضخمة . وعلم فرديناند الثالث وهو في طريقه إلى ليون بما تم من استيلاء قواته على بعض أبراج المدينة ، وبما تبين من

ضعف وسائل الدفاع عنها ، فارتد إليها مسرعاً تلاحقته قواته من سائر الأنحاء ، وبادر أهل قرطبة بالتأهب للدفاع عن مدينتهم ، وأرسلوا إلى ابن هود أميرهم الشرعى يطلبون العوث والإنجاد ؛ وقدر ابن هود خطورة الموقف ، واعتزم أن يسير لإنجاد الحاضرة المحصورة ، ولكنه علم في طريقه أن جيش القشتاليين يفوقه في الأهبة والكرّة ، ووصله من جهة أخرى صريخ أبي جميل زيان أمير بلنسية لمعاونته ، ضدّ چايم ملك أراجون الذى اشتد في مناوئته وإرهاقه ؛ ولاح له أن السير إلى بلنسية التى كان يطمح إلى امتلاكها أيسر وأجدى ، فترك قرطبة لمصيرها مؤملاً أن يصمد أهلها للدفاع عنها أو يستطيع انقاذها فيما بعد . ولبت النصارى على حصار قرطبة بضعة أشهر ، ودافع القرطبيون عن مدينتهم وعن دينهم وحرّياتهم أعنف دفاع وأروع ، ولكنهم اضطروا في النهاية ، وبعد أن أرهقهم الحصار وفقدوا كل أمل في العوث والانقاذ ، إلى التسليم . ودخل النصارى قرطبة في ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ (٢٩ يونيه سنة ١٢٣٦ م) وفي الحال حولوا مسجدّها الجامع إلى كنيسة ، وقد كان هذا شعارهم كلما دخلوا قاعدة أندلسية ، إيداناً بظفر النصرانية على الإسلام . وكان لسقوط العاصمة الخلافية الثالثة أعظم وقع في الأندلس وفي سائر جنّيات العالم الإسلامى ، وكان ضربة ممّية أخرى صوبتها اسبانيا النصرانية إلى قلب الأندلس المنهكة المهوكة القوى (١).

ولم يلبث ابن هود أن توفى بعد ذلك بقليل في أوائل سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) وكانت وفاته في ثغر المرية ، في ظروف غامضة . وكان قد سار إليها معتزماً أن ينقل بعض قواته في البحر لإنجاد أمير بلنسية ، فقبل إن وزيره ونائبه في المرية أبا عبد الله محمد بن عبد الله الرميمى استضافه في قصره ، ودبر قتله غيلة ، وزعم في اليوم التالى أنه توفى مصروعاً . وكان الرميمى قد قام بدعوته في المرية ووفد عليه في مرسية فقدر عونه وولاه وزارته وعينه حاكماً للمرية ، ثم تغير عليه فيما يقال من أجل جارية

(١) راجع في سقوط قرطبة ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ و١٨٣ ؛ ونفع الطيب ج ٢ ص ٥٨٥ حيث يشير إليه إشارة عابرة مع تحريف في التاريخ ، إذ يذكر أن سقوطها كان في سنة ٦٣٦ هـ . وراجع أيضاً ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين للمؤرخ الألمانى أشباخ (وترجمة محمد عبد الله عنان) ج ٢ ص ١٨٥ — ١٨٧ .

حسنا أغراها الرميمي ، فسار إلى المرية لمعاقبته ، وخشى الرميمي العاقبة فدبر مصرعه ولحا إلى الجريمة احتفاظاً بسلطانه (١).

وهكذا توفي ابن هود وهو في ذروة سلطانه ومشاريعه ، ولم تطل وثبته التي بثت إلى الأندلس مدى لحظة قصيرة أملاً خلباً، سوى بضعة أعوام ، فانهارت بوفاته دولته التي لم يتح لها كثير من أسباب الاستقرار والتوطد (٢).

وعلى أثر وفاة ابن هود وانهيار دولته بادر چايم ملك أراجون بانتهاز الفرصة السانحة فغزا ولاية بلنسية . وكان قد استولى قبل ذلك بأعوام قلائل على الجزائر الشرقية (جزائر البليار) في سنة ٦٢٧ هـ (١٢٣٠ م) . وكانت بلنسية قد بقيت في يد الموحدين وتولى إمارتها السيد أبو عبد الله محمد أخو المأمون وتلقب بالعاقل حسبما أسلفنا . وكان مذ رأى خطر ابن هود على إمارته قد استغاث بملك أراجون وانصوى تحت لوائه ، وتعهد له بأداء الجزية . وعندئذ ثار أهل بلنسية واختاروا لهم زعيماً آخر هو أبو جميل زيان سليل آل مردنيش أمراء بلنسية السابقين ، ففر السيد أبو عبد الله أمام السخط العام ، والتجأ إلى ملك أراجون واعتنق النصرانية . ثم غزا چايم بلنسية وحاصرها ودافع أهلها عن مدينتهم ببسالة ، واستغاث أميرها أبو جميل زيان بأمر تونس الحفصي فلم يغنهم ذلك شيئاً ، وسقطت بلنسية في يد النصارى في صفر سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) (٣) وأتبع چايم فتح بلنسية بالاستيلاء على شاطبة ودانية وذلك سنة ٦٣٨ هـ — ١٢٤١ م . وأما ولاية مرسية فقد استولى عليها في البداية الأمير أبو جميل زيان عقب فقدته لبلنسية ولكن الزعماء المحليين آثروا الانضواء تحت حماية ملك قشتالة ، فتقدموا إليه يلتمسون مهادنته ومخالفته على الوضع المأثور ، وهو أن يسمح لهم باستبقاء مدنهم في طاعته وتحت حمايته ، فأجابهم فرديناند ملك قشتالة الى ملتسمهم ، وبعث إليهم ولده الفونسو . ودخل النصارى مرسية صلحاً سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) وبذلك سقطت ولاية بلنسية ومرسية وشرقي الأندلس كله في يد النصارى في أعوام قلائل فقط ، وكانت

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٢ و ٥٨٣ .

(٢) راجع في ثورة ابن هود ووفاته ابن خلدون في ج ٤ ص ١٦٨ — ١٧٠ ؛ والاحاطة ج ٢ ص ٩٠ — ٩٤ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨١ — ٥٨٣ ؛ وراجع تاريخ الموحدين والمرابطين ج ٢ ص ١٦٠ و ١٦١ و ١٨٦ و ١٨٧ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ .

نفس المأساة تتكرر في ذلك الوقت نفسه بصورها وأوضاعها المحزنة في غربي الأندلس حسبما تفصيل بعد .

— ٢ —

وفي تلك الآونة العصبية التي أخذت فيها قواعد الأندلس العظيمة : قرطبة ، وبلنسية ومرسية وإشبيلية ، تسقط تباعاً في يد النصارى ، والتي أخذت الأندلس تواجه فيها شبح الفناء من جديد كما واجهته أيام الطوائف ، كانت عناصر الفتنة والنوضى تتمخض عن قيام مملكة إسلامية جديدة في جنوبي الأندلس هي مملكة غرناطة . وقيام هذه المملكة في الطرف الجنوبي للدولة الإسلامية القديمة يرجع إلى عوامل جغرافية وتاريخية واضحة . ذلك أن القواعد والثغور الجنوبية التي تقع فيما وراء نهر الوادي الكبير آخر الحواجز الطبيعية ، بين اسبانيا النصرانية وبين الأندلس المسلمة ، كانت أبعد المناطق عن متناول العدو وأمنعها ، وكانت في الوقت نفسه أقربها إلى الضفة الأخرى من البحر ، إلى عُدوة المغرب وشمال إفريقيا حيث تقوم دول إسلامية شقيقة ، وحيث تستطيع الأندلس وقت الخطر الداهم أن تستمد الغوث والعون من اخوانها في الدين . وقد كان لها في ذلك منذ أيام الطوائف أسوة ، بل لقد كان صريخ الأندلس يتردد في تلك الآونة ذاتها على لسان شاعرها وسفيرها ابن الأبار القضاعي حينما دهم العدو بلنسية في سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) ، وكان الصريخ موجهاً من أميرها أبي جميل زيان إلى أبي زكريا الحفصي ملك إفريقيا (تونس) وهو الذي رده الشاعر في قصيدته الشهيرة التي مطلعها : (١) .

| | |
|--------------------------------|------------------------------|
| أدرك بحملك خيل الله أندلسنا | ان السبيل إلى منجاتها درسا |
| وهب لها من عزيز النصر ما التمت | فلم يزل عز النصر منك ملتتمسا |
| وحاش مما تعانيه حشاشتها | فطلما ذاقت البلوى صباح مسا |
| يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً | للحادثات وأمسى جدها تعسا |
| في كل شارقة المنام بائقة | يعود مأتمها عند العدا عرسا |

(١) تراجع هذه القصيدة في نفع الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ وما بعدها ؛ وفي أزهار الرياض ج ٤٧ وما بعدها ، وهي من غرر القصائد الأندلسية السياسية

وكل غاربة إجحاف نائبة تثني الأمان حذاراً والسرو راسي
تقاسم الروم لانالت مقاسمهم ولا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسية منها وقرطبة ما ينسف النفس أوما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسما جذلان وارتمل الإيمان مبتسما
وصيرتها العوادي العابثات بها يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

وفي قول الشاعر يتمثل هذا المغزى التاريخي الذي لبث أحقاباً يربط بين الأندلس وبين الدول الإسلامية الشقيقة في عدوة المغرب ، وقد كان يتمثل واضحاً كلما اشتد الخطر بالأمة الأندلسية ، ولاح لها شبح الفناء في جزيرتها المنقطعة قوياً رهيباً .

وقد قامت مملكة غرناطة التي شاء القدر أن تكون ملاذ الأمة الأندلسية دهرأ طويلاً آخر في ظروف متواضعة . وذلك أنه لما ضعف أمر الموحدين بالأندلس وخرج عليهم محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل كما قدمنا ، وأخذت قواعد الأندلس تخرج من قبضتهم تباعاً ، ينتزع بعضها ابن هود وثوار النواحي ، والبعض الآخر ينتزعه النصارى ، كان من الزعماء الذين ظهروا أثناء الفتنة محمد بن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر سليل بني نصر ، وهم في الأصل سادة حصن أرجونة من أعمال قرطبة . وهو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي . ويُرجع بنو نصر نسبهم إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج وأحد أكابر الصحابة ، فهم بذلك من أعرق البطون العربية . وقد أشار إلى هذه النسبة بعض مؤرخي الأندلس ومنهم الرازي (١) . وكان لبني نصر وجاهة وعصبية . وولد محمد بن يوسف في أرجونة سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ونشأ في مهاد الفضيلة والتكشيف جندياً وافر الحراة والعزم ، يتزعم قومه ، ويقودهم إلى مواطن النضال ، وكان بالرغم من تقشفه وتواضعه يجيش بأطماع كبيرة ، وكانت حوادث الأندلس يومئذ تقدم لأولى العزم والإقدام كثيراً من فرص الظهور والمغامرة ؛ فلما تفاقت الفتنة ، واضطربت الشؤون في الثغور والنواحي ، وكثرت غزوات النصارى لقواعد الأندلس وظهر ابن هود على الموحدين في الثغور الشرقية ، لاحت لمحمد بن يوسف فرصة

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٠ ، والإحاطة ج ١ ص ٣٩ وج ٢ ص ٥٩ و ٦٠ ؛ وأزهار الرياض

العمل ، وكان هذا الزعيم المتواضع الموهوب معاً يبدو لكثير من الزعماء وذوى الرأى ، معقد الآمال فى انقاذ ما بقى من تراث الأندلس ، فالتفت حوله الصحب والأنصار أولاً فى أرجونة موطن أسرته وعصبته ، وفى الجهات المجاورة لها . وبينما كان ابن هود يعمل لتوطيد سلطانه فى شرقى الأندلس وجنوبها ، كان محمد بن يوسف يعمل من جانبه فى الأنحاء الوسطى ، ولم يلبث أن أطاعته بياسة ووادى آش وما حوّلها من البلاد والحصون ، وبسط حكمه على تلك الأنحاء بالرغم من معارضة ابن هود . ثم اتجه ببعده إلى القواعد والثغور الجنوبية باعتبارها أقرب ميدان للعمل ، وأبعد الأماكن عن متناول العدو ، ورأى فى الوقت نفسه ، أن يستظل بدعوة أحد الأمراء المسلمين الظاهرين ، فدعا للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية (تونس) وتلقى منه بعض العون ، وناشد قرمونة وقرطبة وإشبيلية بطاعته لمدى قصير ، ثم عدلت قرطبة وإشبيلية عنه إلى طاعة ابن هود . ولما اضطرت الثورة فى إشبيلية واستطاع الزعيم الثائر أبو مروان الباجى أن يبسط حكمه عليها ، وأن يخرج منها عامل ابن هود ، بادر محمد بن يوسف إلى مخالفته على معارضة ابن هود ومقاتلته ، وهزمه سوياً فى بعض المواقع . ولكن محمداً غدر بعد ذلك بالباجى ليخول له الحو ودس عليه من قتله (١) ولم يمتد قليل على ذلك حتى أطاعته جيان وشريش ومالقة وكثير غيرها من القواعد والحصون القريبة (سنة ٦٣٠ هـ) . أما إشبيلية وغربى الأندلس فقد احتفظت باستقلالها فى ظل بعض الأمراء الموحدين . وهرع إلى لوائه كثير من المسلمين الذين غادروا المدن التى وقعت فى يد النصارى ، واستطاع أن يجمع جيشاً كبيراً من الفرسان والمشاة .

ولما قويت دعوة ابن هود وامتد سلطانه نحو الغرب والجنوب واستولى على غرناطة وأقره الخليفة العباسى على دعوته ، رأى محمد بن يوسف (ابن الأحمر) مصانحته والانضواء تحت لوائه ، فانحاز إليه وجاهر بطاعته ، ولكن ابن هود ما لبث أن توفى فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ وانهارت دولته كما قدمنا . وعندئذ بادر محمد بن يوسف إلى العمل لاجتماع تراثه فى الأنحاء الوسطى . وكان ابن هود قد ولى على غرناطة عتبة ابن يحيى المغبلى ، وكان خصماً لابن الأحمر يأمر بسبه على المنابر ، وكان ظلوماً جائراً

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ، واللمعة الدرية فى الدولة النصرية ص ٣١ .

فلما اشتدت وطأته على أهل غرناطة ثار عليه جماعة من أشرفها بزعامة ابن خالد . واقتحموا القصبه والقصر في عصبتهم وقتلوا عتبة وأعلنوا طاعتهم لابن الأحمر، وبعثوا إليه يستدعونه ؛ فسار ابن الأحمر إلى غرناطة ودخلها في يوم من أواخر رمضان سنة ٦٣٥ هـ (ابريل سنة ١٢٣٨ م) في أصيل يوم نزوله ، وهو يرتدى ثياباً خشنة وحلة مرقعة ، ونزل بجامع القصبه وأم الناس لصلاة المغرب ، ثم خرج من المسجد إلى قصر باديس والشموع بين يديه ونزل فيه مع خاصته ، وبدا غدت غرناطة حاضرتة ومقر حكمه ، وكان ذلك لأشهر قلائل فقط من وفاة ابن هود(١) . وما كاد ابن الأحمر يستقر في حاضرتة الجديدة حتى عول على افتتاح المرية وسحق ابن الرميمي وزير ابن هود وقتله ، فسار إليها في بعض قواته وحاصرها مدة فلما اشتد عليها الحصار غادرها الرميمي من جهة البحر بأهله وماله في سفينة خاصة ، وسار إلى تونس مستظلاً بلواء أميرها أبي يحيى الحفصي ، وملك ابن الأحمر المرية وامتد بذلك سلطانه إلى سائر الشواطىء الجنوبية .

وكان من أعظم أعوان محمد بن يوسف في تلك المعركة التي انتهت بتحقيق رياسته أصحابه بنو اشقيلولة . وكان كبيرهم أبو الحسن بن اشقيلولة من رجالات الأندلس وزعمائها وقت الفتنة ، وكان من خصوم ابن هود ومن المقاومين لحركته ، فأنحاز إلى محمد بن يوسف منذ الساعة الأولى ، وعاونه على مقاومة خصومه ، وتوثقت أواصر الزعيمين بالمصاهرة إذ تزوج أبو الحسن أخت محمد بن يوسف وتزوج ولده أبو محمد عبد الله بن اشقيلولة من ابنته . ولما استقام الأمر لابن الأحمر ندب صهره أبا الحسن لحكم وادي آش وندب أبا محمد لحكم مالقة . ولما توفي أبو الحسن خلفه في حكم وادي آش ولده أبو اسحق . وتمكن نفوذ بني اشقيلولة في الرياسة وكانوا عضداً لابن الأحمر ، ولكن أطماعهم كانت تتجاوز حكم المدن ، وكان ابن الأحمر في أواخر عهده يستريب بهم ويخشى بأسهم وقد ظهرت أعراض انتقاضهم غير بعيد (٢) .

(١) اللحة البدرية من ٣٥ ؛ وراجع الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، وهو مؤلف مجهول (طبع الجزائر سنة ١٩٢٠) ص ٦٠ وفيه أن دخول ابن الأحمر مدينة غرناطة كان في آخر رمضان سنة ٦٣٦ هـ . ولكن معظم الروايات على أن دخوله كان في ٦٣٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٧ .

وهكذا نشأت إمارة غرناطة الصغيرة من نحر الفوضى التي سادت الأندلس على أثر انهيار دولة الموحدين ، ولكنها كانت في حاجة إلى الاستقرار والتوطد ، وكان محمد بن يوسف يواجه في سبيل هذه المهمة كثيراً من الصعاب ، وكانت الأندلس قد مزقتها الحرب الأهلية شيعاً وانتشرت إلى حكومات ومناطق عديدة ، وكان ابن الأحمر يحظى بتأييد جمهرة كبيرة من الشعب الأندلسي ولا سيما في الجنوب . ولم يك ثمة ما يمنع من التفاف الأمة الأندلسية كلها حول لواء هذا الزعيم المنقذ ، ولكن روح التفرق والتنافس كانت متأصلة في نفوس المتغلبين والطامعين ، وكان أصاغر الزعماء والحكام يوثرون الانضواء تحت لواء ملك النصارى والاحتفاظ في ظله بمدنهم وقواعدهم على مظاهرة ابن الأحمر والانضواء تحت لوائه . وحدث ذلك بنوع خاص في مرسية وشرقي الأندلس حسبما أشرنا من قبل ، حيث ارتضى والي مرسية محمد بن علي بن هود وحكام لقنت وأريولة وقرطاجنة وجنجاله وغيرها أن يعقدوا الصلح مع ملك قشتالة على أن يعترفوا بطاعته ويؤدوا له الجزية ، وأن يبقوا متمتعين في ظله بحكم مدنهم ومواردهم . وعلى أثر ذلك سلمت مرسية ودخلها الفونسو ولد فرديناند الثالث ملك قشتالة في احتفال فخيم (٦٤١ هـ - ١٢٤٣) . وهكذا كان الخلاف بين أبناء الأمة الأندلسية في تلك الآونة العصبية يذهب إلى حد التضحية بأقدس المبادئ وأسمى الاعتبارات ، وكانت وشائج القومية والدين والخطر المشترك كلها تغيض أمام الأطماع الشخصية الوضيعة ، وكان فرديناند الثالث يرى في ابن الأحمر بعد اختفاء ابن هود زعيم الأندلس الحقيقي والحصم الذي يجب تحطيمه . وكان ابن الأحمر من جانبه يقدر خطورة المهمة التي ألقاها القدر على عاتقه ، وكان يضطرم عزمًا وإقداماً لمحاربة النصارى واستخلاص تراث الوطن من أيديهم ؛ فأكاد يستقر في غرناطة حتى نشط إلى محاربة النصارى ، وسار إلى قلعة مرطوش في قوة كبيرة وضرب حولها الحصار (٦٣٦ هـ) ولكن النصارى قدموا لإنجادها بسرعة ، واضطر ابن الأحمر إلى رفع الحصار واشتباك مع النصارى في معركة أحرز النصر فيها . على أن مثل هذه المعارك المحلية لم تكن حاسمة في سير الحوادث . وكان فرديناند الثالث يرقب نهوض هذه القوة الأندلسية الحديدية بعين التوجس ويتأهب لمقارعتها ، فأكاد ينتهي من إخضاع الشغور الشرقية والاستيلاء على مرسية حتى عمد إلى مهاجمة ابن الأحمر ، وبعث لقتاله جيشاً قوياً

بقيادة ولده الفونسو . واستولى النصارى على حصن أرجونة وعسدة حصون وأماكن أخرى من أملاك أمير غرناطة ، ثم حاصروا غرناطة نفسها (٦٤٢ هـ - ١٢٤٤ م) ولكنهم ردوا عن أسوارها بخسائر فادحة . وفي العام التالى زحف النصارى على جيان وحاصروها حتى كادت تسقط فى أيديهم . فلما رأى ابن الأحمر تفوق النصارى وعبت المقاومة آثر مصانعة ملك قشتالة ومهادنته ، فسار إلى لقائه فى معسكره وقدم إليه طاعته ، واتفق على أن يحكم أراضيه باسمه وفى ظله وأن يوفى له جزية سنوية ، قدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب (دوبلاس) وأن يعاونه فى حروبه ضد أعدائه فيقدم إليه عدداً من الحند أينما طلب منه ذلك ، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابى (الكورتيس) باعتباره من الأمراء التابعين للعرش . وسلم إليه جيان وأرجونة وبركونة وبيغ والحجار وقلعة جابر رهينة بحسن طاعته ، ونزل له عن أرض الفرنتيرة لعجزه عن الاحتفاظ بها(١) . وفى مقابل هذا الثمن الفادح عقد ملك قشتالة السلم مع ابن الأحمر لمدة عشرين سنة ، وأقره على ما بقى بيده من القواعد والحصون (٦٤٣ هـ - ١٢٤٥ م)(٢) . وهكذا أمنت غرناطة شر العدوان مدى حين ، وقبل ابن الأحمر أن يضحي استقلاله السياسى وهيبته الأدبية احتفاظاً بأراضيه ، وتطلعاً إلى ظروف أفضل يستطيع فيها النضال والصمود .

وفى تلك الفترة العصبية كانت الفتنة تمزق ما بقى من أوصال الأندلس ويهرع الزعماء المسلمون الأصاغر إلى مصانعة ملك قشتالة والانضمام تحت لوائه ، وكانت اسبانيا النصرانية قد انتهت من الاستيلاء على الولايات الشرقية كلها ، ولم يبق عليها سوى التهام الولايات الغربية . ولم يكن مثل ابن الأحمر وهو أعظم زعماء الأندلس يومئذ ، مشجعاً على غير هذا المسلك الموثم . فى سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) نزل ابن محفوظ لملك قشتالة عن مدينة طليبة ، والعلى ، وشلب ، والخزانة ، ومرشوشة ، وبطرنا ، والحرة(٣) . وكان فرديناند الثالث يتأهب فى تلك الآونة ذاتها لافتتاح إشبيلية أعظم القواعد الأندلسية . وكان قد استطاع قبل ذلك بأشهر أن يستولى على مدينة قرمونة

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ ، والفرنتيرة Fronterra هى المنطقة الساحلية الواقعة غربى

الجزيرة الخضراء والممتدة من نهر قادس جنوباً حتى طرف الغار .

(٢) الذخيرة السنوية ص ٧٢ ؛ والمصحح البدرية ص ٣٦ .

(٣) الذخيرة السنوية ص ٧٦ .

حصن إشبيلية الأمامي ، وذلك بمعاونة محمد بن الأحمر وفقاً للتحالف المعقود بينهما ، ثم عمد بعد ذلك إلى افتتاح باقي الحصون القريبة من إشبيلية . واستطاع ابن الأحمر بنصحه وتدخله أن يقنع معظم أصحابها بتسليمها لملك قشتالة مقابل تعهده بأن يختن دماء المسلمين ، وأن يمنحهم شروطاً سخية . ولم تأت أواسط سنة ١٢٤٧ م (٦٤٥ هـ) حتى كان ملك قشتالة قد استولى على جميع الحصون الواقعة حول إشبيلية ، وانتسف سائر البسائط والضياع القريبة منها .

وبدأ النصارى حصارهم لإشبيلية في أغسطس سنة ١٢٤٧ م (ربيع الثاني سنة ٦٤٥ هـ) . وكان زعيم المدينة وحاكمها يومئذ أمير من الموحدين هو السيد أبو عبد الله ، ويعاونه في تنظيم الدفاع عنها ابن أخيه أبو الحسن بن أبي علي حاكم قرمونة السابق . وصمم أهل إشبيلية على الدفاع عن مدينتهم جهداً استطاعتهم ، وحشد فرديناند من جانبه حول المدينة المحصورة قوات عظيمة ، وتسابق الأمراء والأشراف والأخبار النصارى في الاشتراك في هذه الحملة الصليبية الخطيرة ، واضطر ابن الأحمر أن يقدم وفقاً لتعهده قوة من الفرسان للمعاونة في حصار الحاضرة الإسلامية والاستيلاء عليها . وهكذا أرغم هذا الزعيم المسلم على أن يشرب الكأس المرة إلى الثمالة في مخالفة أعداء وطنه ودينه . وتقول بعض الروايات الإسلامية إن ابن الأحمر كان يرمي بمعاونة النصارى على هذا النحو إلى الانتقام من أهل إشبيلية لخذلهم إياه ونكولهم عن طاعته (١) . وطال الحصار حول إشبيلية وأخذ يشتد يوماً بعد يوم ، وكانت المدينة المحصورة تتلقى من وقت إلى آخر من عدوة المغرب بعض المؤن عن طريق الوادي الكبير . ولما تفاقمت أهوال الحصار وضع شاعر إشبيلية يومئذ إبراهيم بن سهل الإشبيلي الإسرائيلي قصيدة مؤثرة يستصرخ فيها أهل العدو ويستحثهم على المبادرة إلى نصرته إخوانهم في الدين وفيها يقول :

ورداً فمضمون نجاح المصنر
نادى الجهاد بكم بنصر مضمير
خلوا الديار لدار عز واركبوا
وتسوغوا كدر المناهل في السرى
هي عزة الدنيا وفوز المحشر
يبدو لكم بين القنسا والضمير
عبر العجاج إلى النعيم الأخضر
ترووا بماء الحوض غير مكدر

يا معشر العرب الذين توارثوا شيم الحمية كابراً عن أكبر
إن الإله قد اشترى أرواحكم بيعوا ويهنثكم وفاء المشتري
أنتم أحق بنصر دين نبيكم ولكم تمهد في قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا ذاك البناء بكل لدن أسمر (١)

وطال حصار إشبيلية زهاء ثمانية عشر شهراً ، وأبدى المسلمون آيات من البسالة
والجلد في الدفاع عن حاضرهم ، ولكن هذه البسالة لم تجن شيئاً أمام عزم النصارى
وتصميمهم . وأخيراً اضطر الإشبيليون إلى قبول مصيرهم المحتوم ، وسلمت إشبيلية
لفرديناند الثالث على أن يؤمن المسلمون في أنفسهم وأموالهم ، وأن يخيروا في البقاء
بالمدينة أو يهاجروا منها . وفي ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٨ (٢٧ رمضان سنة ٦٤٦ هـ) دخل
النصارى مدينة إشبيلية بعد أن حكمها المسلمون أكثر من خمسة قرون وحكمها
الموحدون زهاء قرن . وفي الحال حول مسجد الجامع إلى كنيسة وأزيلت منها معالم
الإسلام بسرعة ، وتفرق معظم أهلها المسلمين في الحواضر الإسلامية الباقية ، ولا سيما
غرناطة . وكان سقوط إشبيلية إيذاناً بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية الواقعة
فيما بينها وبين مصب الوادى الكبير . وهكذا استولى النصارى تباعاً على شريش
وشذونة وقادس وشلوقة وغليانة وروضة وثر شتمرية ، وروطة والأرك وغيرها من
قواعد الوادى وحصونه ؛ وسلم ابن محفوظ في الوقت نفسه للنصارى حصن اللقوة ووادى
أنة وشنتل والحصين وشاطيش ، على أن يستبقى حكم لبلبة وأحوازها (٢) . وعاون ابن الأحمر
النصارى في الاستيلاء على ثغر قادس . وهكذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر
الأراضي الإسلامية الواقعة غربى ولاية الأندلس ، وأخذت رقعة الدولة الإسلامية
تنكمش بسرعة مروعة .

وكان موقف ابن الأحمر من هذه الحوادث موقفاً شاذاً مثلاً ، فقد كان يقف
إلى جانب أعداء أمته ودينه ، وكان يبذل للنصارى ما استطاع من العون المادى والأدبى ،
وكان معظم الزعماء المسلمين من حكام المدن والحصون الباقية ، وقد أيقنوا بانهايار
سلطان الإسلام فى الأندلس ، يهرعون إلى احتذاء مثاله وإلى الانضواء تحت لواء

(١) راجع هذه القصيدة بأكلها فى الذخيرة السنية ص ٧٤ وما بعدها .

(٢) الذخيرة السنية ص ٨٥ .

ملك قشتالة . وكانت هذه المناظر المؤلمة تتكرر في تاريخ الأندلس منذ الطوائف حيث نرى كثيرا من الأمراء المسلمين يظهرون النصراري على إخوانهم في الدين ، احتفاظا بالملك والسلطان . ولكن ابن الأحمر كان يقبل هذا الوضع المؤلم إنتماذا لتراث لم يكتمل الرسوخ بعد ، وتنفيذا لأمنية كبيرة بعيدة المدى . ذلك انه كان يطمح إلى جمع كلمة الأندلس تحت لوائه ، وإدماج ماتبقى من تراثها وأراضيها في مملكة موحدة تكون مُلكا له ولعقبه . ولم تكن تحذوه رغبة في توسع يجعله إلى الأبد أسيرا لخصائمه النصراري ، مثلما كان يفعل أسلافه زعماء الطوائف . بل كانت تحذوه قبل كل شيء رغبة في الاستقلال والتوطد داخل حدود إمارته المتواضعة . وقد لبث يعمل على تحقيق هذه الغاية في ولاية غرناطة والولايات المجاورة ، وهو يصانع النصراري ويتجنب الاشتباك معهم ، ويشهد التهامهم لأشلاء الوطن الممزق وقلبه يتنظر حزنا وأسى .

على أن ابن الأحمر لم يكن يعترم المضي في ذلك المسلك المؤلم المهين إلى النهاية ، فقد كانت نفسه الوثابة تحذته من وقت إلى آخر بأن يحطم هذه الأغلال الشائنة التي صمدته بها مخالفة النصراري ، وكان كلما آنس ازدياد قوته ورسوخ سلطانه صلبت قناته وذكا عزمه ، وكان يتجه ببصره إلى ما وراء البحر إلى إخوانه في الدين في عدوة المغرب ، وكان جريا على السياسة الأندلسية الماثورة يرى في ملوك العدو عضداً له قيمته في مغالبة النصراري . وكانت حوادث المغرب تتمخض في ذلك الحين بالذات عن قيام دولة جديدة قوية هي دولة بني مرين . ومع أن الكفاح بين دولة الموحدين المحتضرة وبين دولة بني مرين الناشئة (١) كان يحول دون إنجاد الأندلس بصورة فعالة ، فان كتائب المجاهدين من بني مرين والمتطوعة من أهل المغرب ، لم تلبث أن هرعَت إلى غوث الأندلس . وعبر القائد أبو معرف محمد بن ادريس بن عبد الحق المريني وأخوه الفارس عامر البحر في نحو ثلاثة آلاف مقاتل ، جهزهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين ، وكانت حوادث الأندلس المؤسسة تحدث وقعها العميق في المغرب ، وكانت رسائل الأندلس تترى إلى أمراء المغرب وأكابرهم بالصريح مما تكابده من عدوان النصراري واستطالهم ، والاستنصار بأهل العدو

(١) سنعود إلى التحدث عن قيام دولة بني مرين في موضع آخر .

إخوانهم في الدين ، وكان علماء المغرب وخطباؤها وشعراؤها يبثون دعوة الغوث والإيجاد ، ومن ذلك قصيدة مؤثرة وضعها أبو الحكم مالك بن المرحل ، وقرئت في جامع القرويين بفاس في يوم جمعة من أيام سنة ٦٦٢ هـ ، وبكى الناس تأثرا لسماعها ومما جاء فيها :

استنصر الدين بكم فاستقدموا فإنسكم إن تسلموه يسلم
لاذت بكم أندلس ناشرة برحم الدين ونعم الرحم
فاسترحمتكم فارحموها إنه لا يرحم الرحمن من لا يرحم
ماهى إلا قطعة من أرضكم وأهلها منكم وأنتم منهم (١)

وكان لاهتمام المغرب بانجاد الأندلس صداه . وكان ابن الأحمر قد بدأ في الوقت نفسه يشعر بمقدرته على مواجهة النصارى والخروج على طاعتهم ، وحماية مملكته الفتية من عدوانهم . ولما فاتحه النصارى بالعدوان وغزوا أراضيه في سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) استطاع بمعاونة قوات من المتطوعة والمجاهدين الذين وفدوا من وراء البحر ، أن يهزمهم وأن يردهم عن أراضيه ، وبذلك ظهرت الأندلس على عدوها في ميدان الحرب لأول مرة منذ انهيار دولة الموحدين . ولما عبرت الكتائب المرينية بعد ذلك بقليل (٦٦٢ هـ) استطاع قائدهم الفارس عامر بن ادريس أن ينتزع مدينة شريش من يد النصارى (٢) .

وقد كانت هذه بارقة أمل متواضعة . ولكن الحوادث ما لبثت أن تجهمت للأندلس مرة أخرى . ذلك أن ملك قشتالة (الفونسو العاشر) خشى هذه البادرة على خططه وغزواته ، وخشى بالأخص ان تتضاعف الأمداد من وراء البحر فيشتد ساعد أمير غرناطة ، ومن ثم فقد عول أن يضاعف أهبطه وضغطه على القواعد الأندلسية الباقية . ففي أواخر سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣ م) نزل ابن يونس صاحب مدينة إستجة عنها إلى النصارى ، ودخلها دون جيل قائد القشتاليين ، فأخرج أهلها المسلمين منها ، وقتل وسبي كثيرا منهم . وفي العام التالي (٦٦٣ هـ) ظهرت نيات ملك قشتالة واضحة في العمل على افتتاح ما بقي من القواعد الأندلسية ، وسرى

(١) راجع الذخيرة السنية ص ١٠٨ - ١١٢ حيث يورد القصيدة بأكملها .

(٢) الذخيرة السنية ص ١١٢ .

الخوف إلى نواحي الأندلس ، وعادت الرسائل تترى على أمراء المغرب وزعمائه بالمبادرة إلى امداد الأندلس وإغاثتها قبل أن يفوت الوقت ، خصوصاً وقد بدأ عدوان النصرارى يحدث أثره ، وبدأت هزائم قوات ابن الأحمر في ذلك الوقت على يد دون نوليودى لآرا (دوننه) صهر ملك قشتالة وقائده الأكبر (٦٦٣ هـ - ١٢٦٤ م) .

وكتب الفقيه أبو القاسم العزفى صاحب سبته رسالة طويلة إلى قبائل المغرب يستنصرهم فيها ويحثهم على الجهاد فى سبيل الأندلس ، وفيها يقول : « ولا تخلدوا بركون إلى سكون ، والدين يدعوكم لنصره ، وصارخ الإسلام قد أسمع أهل عصره ، والصلاب قد أوعب فى حشده ، فالبدار البدار بإرهاب الحد وأعمال الجهاد فى نيل الحد .. » (١)

وتكرر مثل هذا الصريح إلى سائر أمراء إفريقيا ، وأعلن ابن الأحمر بيعته للملك المستنصر صاحب تونس ، فبعث إليه المستنصر هدية ومالا للمعاونة (٢) . ولكن هذه المساعى لم تسفر عن نتيجة سريعة ناجحة ، وبقيت الأندلس أعواماً أخرى تواجه عدوها القوى بمفردها وتتوجس من سوء المصير .

ولما تفاقم عدوان القشتاليين وضغطهم ، لم ير ابن الأحمر مناصاً من أن يخطو خطوة جديدة فى مهادنة ملك قشتالة ومصادقته ، فنزل له فى أواخر سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) عن عدد كبير من البلاد والحصون منها شريش والمدينة والقلعة وغيرها . وقيل أن ما أعطاه ابن الأحمر يومئذ من البلاد والحصون المسورة للنصارى بلغ أكثر من مائة موضع ومعظمها فى غرب الأندلس (٣) ، وبذا عقد السلم بين الفريقين مرة أخرى .

وهكذا فقدت الأندلس معظم قواعدهم الثالثة فى نحو ثلاثين عاماً فقط فى وابل مروع من الأحداث والحزن ، واستحال الوطن الأندلسى الذى كان قبل قرن فقط ، يشغل نحو نصف الجزيرة الإسبانية ، إلى رقعة متواضعة هى مملكة غرناطة . وقد أثارته هذه الحزن التى توالى على الأندلس فى تلك الفترة المظلمة من تاريخها لوعة الشعر والأدب ، ونظم شاعر العصر أبوالبقاء صالح بن شريف الرندى ، مرثيته الشهيرة ، التى ما زالت تعتبر حتى اليوم من أروع المرثى القومية وأبلغها تأثيراً فى

(١) راجع هذه الرسالة فى الذخيرة السنية ص ١١٣ - ١٢٢ .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٢٥ .

(٣) راجع الذخيرة السنية ص ١٢٧ .

النفس ، وفيها يبكى قواعد الأندلس الذاهبة ، ويستنهض همم المسلمين أهل العدو
لإنجاد الأندلس وغوثها ، واليك بعض ما جاء في هذه المرثية الشهيرة التي خلدت
ذكر ناظمها على كر الأحقاب :

لكل شيء اذا ما تم يقصان
هي الأمور كما شاهدتها دول
وهذه الدار لا تبقى على أحد
يمزق الدهر حتما كل سابعة
فلا يغر بطيب العيش انسان
من سره زمن ساءته أزمان
ولا يدوم على حال لها شان
اذا نبت مشرفيات وخرصان

فجائع الدهر أنواع منوعة
وللحوادث سلوان يهونها
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية
وأين قرطبة دار العلوم فكم
وأين حمص وما تحويه من نزه
قواعد كن أركان البلاد فما
تبكى الحنيفية البيضاء من أسف
على ديار من الإسلام خالية
حيث المساجد قد صارت كنائس ما
حتى المحاريب تبكى وهي جامدة
وللزمان مسرات وأحزان
وما لما حل بالإسلام سلوان
هوى له أحد وانهد شهلان
وأين شاطبة أم أين جيان
من عالم قد سما فيها له شان
ونهرها العذب فياض وملاان
عسى البقاء اذا لم تبقى أركان
كما بكى لفراق الإلف هيمان
قد أقضرت ولها بالكفر عمران
فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المناير تروئى وهي عيدان

أعندكم نبأ من أهل أندلس
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم
فقد سرى بحديث القوم ركبان
أسرى وقتلى فسا يهتز إنسان
وأتم يا عباد الله إخوان (١)

(١) راجع هذه المرثية البليغة بأكملها في نفع الطيب ج ٢ ص ٥٩٤ و ٥٩٥ ، وفي أزهار الرياض
ج ١ ص ٤٧ — ٥٠ . وقد التبس الأمر على المقرئ في تعيين العصر الذي قيلت فيه هذه القصيدة =

وقضى ابن الأحمر الأعوام القليلة الباقية من حكمه في توطيد مملكته واصلاح شئونها ؛ ولم تقع في تلك الفترة حوادث ذات شأن ، فقد لزم النصارى السكنينة حيناً .
ولسكن ظهرت عندئذ أعراض الانتعاش على بنى أشقيلولة أصهار ابن الأحمر ومعاونيه ؛ وكان ابن الأحمر قد زوج في سنة ٦٦٤ هـ إحدى بناته لابن عمه الرئيس ابن سعيد بن اسماعيل بن يوسف ووعده بولاية مالقة ، فسمى ذلك إلى واليها أنى محمد بن أشقيلولة ، وهو أيضاً زوج ابنته فغضب لذلك وأعلن العصيان والاستقلال بحكم المدينة ، فسار ابن الأحمر لقتاله تعاونه قوة من حلفائه النصارى . وحاصروا مالقة ثلاثة أشهر ولسكنهم ارتدوا عنها خائبين (٦٦٥ هـ — ١٢٦٦ م) . وعاد ابن الأحمر فسار إلى مالقة مرة أخرى في سنة ٦٦٨ هـ ولسكنه لم ينل منها مأرباً (١) .

وفي تلك الآونة عاد النصارى إلى التحرك والتحرش بالمملكة الإسلامية ، وسار ملك قشتالة إلى الجزيرة الخضراء فعات فيها ، وعاد ابن الأحمر يتوجس شراً من نيات النصارى ، فبعث إلى أمير المسلمين السلطان أنى يوسف المريني ملك المغرب يطلب منه الغوث والإنجاد ، ونصرة إخوانه المسلمين فيما وراء البحر ، ويخبره بما بدا من عدوان النصارى ونيتهم في القضاء على ما بقى من ديار الأندلس ، ولكن ابن الأحمر لم يعيش ليرى نتيجة هذه الدعوة إذ توفي بعد ذلك بقليل .

==
والذى عاش فيه ناظمها صالح بن شريف فوصفه بأنه خاتمة أدياء الأندلس (أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧) وذكر في نفع الطيب أن أدياناً أخرى أضيفت إليها تشتمل على ذكر بسطه وغرناطة وغيرها ليست من نظم صاحبها لأنه توفي قبل سقوطها (أى غرناطة) مما يدل على اعتقاد المقرئ بأن أبى البقاء عاش في أواخر أيام مملكة غرناطة (أواخر القرن التاسع الهجرى) . بيد أنه يبدو من سياق القصيدة ، وذكر القواعد الأندلسية التى تبكىها وهى بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان وقرطبة وإشبيلية ، وهى التى سقطت كلها في يد النصارى بين سنة ٦٣٥ هـ و ٦٥٠ هـ أن الشاعر قد عاش في هذا العصر . ومن جهة أخرى فقد ذكر صاحب الذخيرة السنية صراحة أنها نظمت حينما نزل ابن الأحمر للنصارى سنة ٦٦٥ هـ عن عدد كبير من القواعد الأندلسية ، وقد كتب صاحب الذخيرة (وهو مؤلف مجهول) مؤلفه في عصر السلطان أبى سعيد المريني (٧١٠ — ٧٣٣ هـ) وأورد في كتابه قصيدة أبى البقاء بأكملها ، وهو دليل قاطع على أن ناظمها عاش في النصف الثانى من القرن السابع الهجرى (راجع الذخيرة السنية ص ١٢٧ — ١٢٩)

(١) الذخيرة السنية ص ١٢٥ و ١٢٩ .

وكان محمد بن الأحمر يتمتع بخلال باهرة من الشجاعة والإقدام ، وشغف
الجهاد والمقدرة على التنظيم . وكان يعرف بالشيخ ويلقب بأبى الماسميين ، وهو
اللقب الذى غلب على سلاطين غرناطة فيما بعد . وهو الذى ابتنى حصن الحمراء
الشهير وجعله دار الملك وجلب له الماء وسكنه بأهله وولده . وأما تسميته بابن الأحمر
فقد اختلفت فى شأنها الرواية . ويقال إن هذه التسمية ترجع إلى نصارة وجهه
واحمرار شعره ؛ ويرى البعض أنها أسبغت عليه لإنشائه حصن الحمراء ؛ ولكن
سوف نرى عند الكلام على تاريخ الحمراء أن هذا الاسم أقدم من الدولة النصرية
ببضعة قرون ، وأنه لا صلة بين هذا الاسم الذى أطلق على الحصن والقصور
الملكية التى أنشأها محمد بن يوسف وبنوه من بعده ، وبين تلقيبهم ببني الأحمر؛ كما أنه
ليس ثمة بين القبائل العربية أية قبيلة تحمل هذا اللقب ، ويمكن أن ينسب إليها
بيت غرناطة الملكى (١). وكان ابن الأحمر يباشر الأمور بنفسه ويدقق فى جمع الأموال
والحبايات حتى امتلأت خزائنه بالمال والسلاح . وكان يعقد للناس مجالس عامة يومين
فى الأسبوع يستمع فيها إلى الظلامات وذوى الحاجات ، ويستقبل الوفود ، وينشده
الشعراء . وكان يجرى فى تصريف شئون الملك على قاعدة الشورى فيعقد مجالس
يحضرها الأعيان والقضاة ومن إليهم من ذوى الرأى للاسترشاد برأىهم ونصحهم (٢).
وكان فى مقدمة وزرائه أبو مروان عبد الملك بن يوسف بن صناديد زعيم جيان ، وهو
الذى مكنته من التغلب عليها ، والقائد أبو عبد الله محمد بن محمد الرميمى ولد صاحب
المرية السابق .

وإليك كيف يصور النقد الغربى الحديث خلال منشى مملكة غرناطة وظروف
مملكته : « كان محمد بن الأحمر من أبرع أولئك الأمراء الذين كان لهم فضل خلال
العصور المضطربة فى الدفاع عن الإسلام ومجد المسلمين ، وكان جرئياً بعيد الغور ولكن
مكره لم يكن راجعاً إلى طبيعة خبيثة وضيعة ، ولكن إلى خلق خصومه الذين كان مرغماً

(١) راجع مقدمة أطلس « الحمراء » Alhambra الذى وضعه Owen Jones & Jules Goury
وكتبها المستشرق جاينجوس (London 1842) ص ٥ الهامش . وتسمى الدولة النصرية على الأغلب
بدولة بنى الأحمر ، ويؤثر ابن خلدون تسميتها بذلك الاسم (ج ٤ ص ١٧٠ وما بعدها) .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ ؛ واللغة البدرية ص ٣١ .

على مقارعتهم. ففي العصور الوسطى كان قانون الأمم وعقد المعاهدات ومحاملات القروسية وشروط السلم الشريف تفهم بطريقة ناقصة وكثيراً ما تذهبك بعسك . وكانت معظم نقائص هذا الأمير العظيم ترجع إلى أخلاق العصر المنحلة . وكانت بوادر خضوعه لأعدائه الألداء مظاهر فقط لسياسة محكمة التدبير ، أقدم عليها لإحراز ملكه وتوطيد سلطانه ، وكان تقدم الغزو المستمر يرهق مملكته ، ولكنها كانت تغدو أقوى ويغدو الدفاع عنها أيسر كلما انكشفت حدودها . وكان التشتاليون كلما احتلوا مدينة جديدة هرعت منها جمهرة من المهاجرين العاملين إلى غرناطة - فزيد سكانها كثرة على كثرة ، يحملون معهم ثروات عظيمة ، وصفات هي أثن من الثروة لدولة منحلة : النشاط والاقتصاد والمقدرة على هضم الظروف الجديدة ، وذكرى المظالم السابقة ، وآلام المطاردة المحزنة ، وأمل الانتصاف ، وشعور لا يقهر ببغض النصرانية . وكان الاندماج السياسى لهذه الجماعات المنفية المضطهدة في حماية الجبال التي تظل ملاذها الأخير ، هو الذى عاون في حنظ مملكة غرناطة الزاهرة لمجدها المستقبل ومحنتها الغامرة » (١).

وتوفى محمد بن الأحمر في التاسع والعشرين من جمادى الثانية سنة ٦٧١ هـ (ديسمبر ١٢٧٢ م) على أثر سقطة من جواده وقد قارب الثمانين من عمره . وكانت مملكة غرناطة قد توطدت دعائمها نوعاً ، واستقر بها ملك بنى نصر الفقى على أسس ثابتة . وكان من حسن الطالع أنه لم يظهر في مملكة غرناطة في بداية أمرها زعماء خوارج ينازعون بنى نصر زعامتهم . ولذا لم نشهد في هذه الأندلس الجديدة مأساة الطوائف مرة أخرى ، وإن كان تاريخ الدولة النصرية لم يخل من ثورات وانقلابات محلية عديدة . وقد كان من غرائب القدر ان هذه المملكة الإسلامية الصغيرة استطاعت غير بعيد أن تعيد لمحة من مجد الأندلس الذاهب ، كما استطاعت بكثير من الشجاعة والجلد ، أن تسهر على تراث الإسلام في الأندلس زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى .

الفصل الثالث

طوائف الأمة الأندلسية

في عصر الانحلال

مملكة غرناطة وحدودها • عناصر سكانها • المدجنون • تاريخهم وحياتهم في ظل الممالك النصرانية • اضطهادهم على يد الكنيسة • نشاطهم وتفوقهم • وثيقة اسبانية عربية تكشف عن أحوالهم • النصارى المعاهدون وأحوالهم في ظل الحكومة الإسلامية • تعصبهم وخياناتهم • نزوح المسلمين الى غرناطة • عناصر الأمة الأندلسية، المولدون، اليهود، الشعب الفرناطى، صفاته وخلالاه.

كانت مملكة غرناطة عندئذ تشمل القسم الجنوبي من الأندلس القديمة ، وتمتد فيما وراء نهر الوادى الكبير إلى الجنوب حتى البحر الأبيض المتوسط ، وتمتد من الشرق فيما بين مدينة بسطة و نجر ألمرية ، غرباً حتى نجر مالقة ورندة وأنتكيرة ، وتحترقها من الوسط جبال سيرانيفادا (جبل شلير) الشاهقة ، وهضاب البشرات الوعرة وبساتينها الخضراء ؛ وأهم نغورها ألمرية ومالقة ، وأهم قواعدها عسدا غرناطة بسطة ووادى آش ولوشة وألحامة (الحمة) ورندة . وكانت خواصها الطبيعية التى تجتمع بين مزيج مدهش من المروج والوديان الحصبة ، والجبال والهضاب الوعرة ، تمدها بثروات زراعية ومعدينية حسنة ، ينميها ويضاعفها الشعب الأندلسى الموهوب بذكائه ونشاطه وبراعته المأثورة . وهكذا كانت مملكة غرناطة الصغيرة تستمد من مواردها الطبيعية أسباب القوة والمنعة والرخاء .

وقد رأينا فيما تقدم أن كورة إلبيرة وهى التى غدت فيما بعد كورة غرناطة ، كانت منذ الفتح منزل قبائل الشام ، وقد لبثت أعقاب هذه البطون مدى عصور كثيرة فى تلك الولاية . ولما اضطرت الفتن بالأندلس عقب انهيار الدولة الأموية ، تقاطر البربر من الضفة الأخرى من البحر على قواعد غرناطة ، ثم غدت مدينة غرناطة مدى حين إمارة بربرية ، وأصبح البربر عنصراً بارزاً فى سكان هذه المقاطعة . وكانت

الثغور الجنوبية بطبيعة الحال منزل البربر كلما عبروا إلى الأندلس ، وخصوصاً أيام المرابطين والموحدين . وكانت طوائف كبيرة من الغزاة تتخلف في هاتيك الوديان النضرة وتستقر فيها يجذبهم خصبها ونعماؤها . ولما أخذت قواعد الأندلس الشرقية والوسطى تسقط تباعاً في أيدي النصارى : كان يهرع إلى القواعد والثغور الجنوبية كثير من الأسر المسلمة الكريمة ، التي آثرت الهجرة إلى أرض الإسلام على التدجن والبقاء تحت سلطان النصارى . على أنه بقيت في القواعد والثغور التي استولى عليها النصارى جموع كبيرة من المسلمين الذين حملتهم ظروف الأسرة ودواعي العيش على البقاء في الوطن القديم ، تحت حكم الإسبان سادتهم الجدد . وأولئك هم المدجنون (١) (أو بالاسبانية Mudijares) أو أهل الدجن . وقد شاع استعمال هذا اللفظ بالأندلس منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) أو بعبارة أخرى منذ كثر استيلاء النصارى على أراضي المسلمين ، وكثر عسدد الرعايا المسلمين الذين تضمهم اسبانيا النصرانية . ولهذا المجتمع الإسلامي الإسباني تاريخ طويل مؤثر . فقد لبث المدجنون عصراً يتمتعون في ظل ملوك قشتالة وأراجون بنوع من الطمأنينة والرخاء والأمن ، فكان يسمح لهم بالاحتفاظ بدينهم وشريعتهم ومساجدهم ومدارسهم ، وكان لهم في العصور الأولى قضاة منهم يحكمون في سائر المنازعات التي تقع فيما بينهم وفقاً للشريعة الإسلامية ؛ أما المنازعات التي تقع بين مسلم ونصراني فكان ينظرها أحياناً قاض نصراني أو تنظرها محكمة مختلطة من قضاة من المذهبين . وكان من امتيازاتهم أن لا يدفعوا من الضرائب غير ما كانوا يؤدونه من قبل للملوكهم ، ثم ترك هذا الإمتياز بمضي الزمن . وأصدر الفونسو العاشر في سنة ١٢٥٤ م لسكان إشبيلية امتيازاً ينحوهم حق شراء الأراضي من المسلمين في منطقتهم مما يدل على أنه قد تمتح للمسلمين بالاحتفاظ بأراضيهم ، وكان لهم حق البيع والشراء في العقارات . فلما تطورت الحوادث ، وغلبت النزعة الرجعية في أواخر القرن الثالث عشر ، صدر قانون يحرم على المسلمين واليهود شراء الأراضي من النصارى ، ولكن ترك هذا القانون فيما بعد . وكان يسمح للمدجنين أيضاً بحمل السلاح ، ويلزمون بتأدية الخدمة العسكرية

(١) من دجن وتدجن أي أقام ، ومصدره الدجن والتدجن ومنه دواجن البيوت وهي طيور وحيوانات أليفة مقيمة .

ويعتبر الإعفاء منها امتيازاً خاصاً . ثم أعفى المدجنون بعد ذلك من الخدمة العسكرية نظير جزية سنوية يؤدونها ، وكان انضمامهم إلى الجيوش النصرانية يقع في حدود نسبتهم العددية . ولما توالى استيلاء الإسبان على القواعد والثغور الأندلسية ، كان تخصص للمدجنين في كل مدينة مفتوحة حتى خاص لإقامتهم ، يفصل بينه وبين أحياء النصارى سور ضخمة ، وكان هذا هو شأن اليهود أيضاً حيث كانوا يلزمون بالإقامة في حي خاص بهم (١) .

وهكذا لبث المدجنون عصراً يتمتعون في ظل الحكم الإسباني بامتيازات كثيرة ، ويعيشون في نوع من الأمن والهدوء ، بعيداً عن عصف الأهواء السياسية والقومية العنيفة . ولكن هذه الحال أخذت في التبدل منذ اتسع نطاق الفتوحات النصرانية في أراضي الأندلس ، وزاد بذلك عدد المدجنين في مختلف المناطق المفتوحة . وكانت الكنيسة تبغض هذه الطوائف الإسلامية القائمة في قلب المجتمع النصراني ، وتنقم على المدجنين هذه الهدنة وهذا التسامح ، وترى في احتفاظهم بدينهم ولغتهم نوعاً من التحدي المذموم ، وتأخذ على ملوك قشتالة وأراجون تسامحهم في معاملتهم ، وتسعى جاهدة لتحريضهم على اتباع سياسة الانتقام والعنف ازاء أولئك الرعايا المسلمين . ومنذ أوائل القرن الثالث عشر تتوالى أوامر البابوية وقراراتها ضد المدجنين والحض على استرقاقهم أو تنصيرهم ، ومن ذلك ما أمر به البابا أنوسان الرابع في سنة ١٢٤٨ م ، ملك أراجون چايم الأول من وجوب استرقاق المسلمين في الجزائر الشرقية . ولكن چايم لم يأبه لذلك الأمر . ولما افتتح ثغر بلنسية في سنة ١٢٣٨ م سمح للمسلمين أن يبقوا فيها كمدجنين . وكان ملوك قشتالة وأراجون يعارضون هذه السياسة العنيفة لبواعث وأسباب تتعاق بمصالحهم القومية ورخاء بلادهم . ذلك لأن المدجنين كانوا بين رعاياهم أفضل العناصر وأنشطها وأكثرها دأباً ومثابرة ، وأوفرها تأدية للضرائب ، وكانوا ساعد النبلاء الأيمن في زراعة أراضيهم واستغلالها . وكانوا يستأثرون بالتفوق في العلوم والفنون والمهن . وكانوا أبرع الأطباء والمهندسين والبنائين . وكان لهم الفضل الأول في إدخال محاصيل عديدة جديدة في اسبانيا النصرانية ، مثل القصب والقطن والأرز والحرير والتين والبرتقال واللوز وغيرها ، وما زالت مشاريع الري التي أنشأوها

تشهد بعقريتهم في هذا المضمار . وهم الذين وضعوا أسس الصناعة الإسبانية ، وكانوا أساتذة الصناعات الدقيقة ، وكانت صناعاتهم ولا سيما المنسوجات القطنية والحريية ، والفخار والخزف والحلود . نماذج بارعة تحذو حذوها الصناعة الأوربية ، فلم يك ثمة أشهر من خزف مالقة ولا أقمشة مرسية ولا حرير المرية وغرناطة ولا أسلحة طليطلة ، ولا منتجات قرطبة الجلادية . وكانت بانسية التي تضم كتلة كبيرة من المدجنين تعتبر من أغنى ثغور أوربا بما تنتجه من السكر والنبيد وغيرها من المنتجات العديدة . وكان المدجنون مثال النشاط والدأب ، يزاولون التجارة بنجاح وشرف ، وكانوا أفضل التجار وأوفرهم أمانة ونزاهة . ولم يكن بينهم متسولون إذ كانوا يعولون فقراءهم . وكانوا مثلاً للنظام والسكينة ، يحسبون منازعاتهم بأنفسهم . وعلى الجملة فقد كانوا يؤلفون أصلح عنصر بين السكان الذين يمكن أن تحتويهم أى البلاد (١) .

وقد لبث ملوك قشتالة عصوراً يحرصون على الانتفاع بنشاط المدجنين وحمايتهم . وكانت ثمة طوائف كبيرة منهم حتى أوائل القرن الرابع عشر تعيش في أنحاء كثيرة من اسبانيا النصرانية محتفظة بدينها ولغتها وتقاليدها (٢) . وكانت البابوية تسير على

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain V. II. p. 66, 67 ;

Dr. Lea : The Moriscos of Spain p. 57.

(٢) نشر المستشرق ديرنبور صورة وثيقة عربية اسبانية مؤرخة في سنة ١٣١٢ م بعنوان : Une Charte Hispano-Arabe de l'année 1312 ، وقد عقدت بين جماعة من المدجنين المقيمين بنافار وبين رئيس مستشفى يوهان دى أورشليم النصرانى . وفيها تبين حقوق كل طرف وواجباته . ومما رتب فيها على المدجنين « أن تعطوا للاشبتال Hospital المذكور الثلث من كل ما تجمعوا من طعام ومن عنب ومن زيتون ومن فول ، ومن كل نوع من كل ما تجمعوا ومن كل فاكهة . وهذا كله أن يعملوه في عهد وميثاق وصدق . وكل مسلم أن يحبس دار وثار في أسران المذكور أن يقدم لقائد اسران الذى يكون على الاشبتال المذكور ربع من قبح ، النصافة من قبح والنصافة من شعير في شهر أغشت من كل عام طول الأبد ، وكل دار أن يعطى للاشبتال المذكور أربعة مرافق من تين في كل عام ، وكل عام مسلم ومسلمين في الموضع المذكور أى يعملوا كل نفقة أن يحتاج في الموضع المذكور .. » ثم تقول الوثيقة :

« أن يطبخوا المسلمين المذكورة خبزهم في فرن الاشبتال المذكور عن دايمة الدهر ، وأن يعطوا من ستة عشر خبزة واحدة ، ولا يقطعوا أشجار ، ولا يقلعوا كرمات دون أمر قائد اسران . . . »
« يكون جميع خصماتكم لحكمه (أى انقندور) وان كان تريدوا تعملوا عند حكمه ارتفاع (استئناف) أن تعملون أمام كل قاضي أن يكون مسلم من تطليلة كما هو سنتكم وشرعتكم ، وأن =

خطتها من التحريض عليهم والمطالبة بتجريدهم من دينهم ، والعمل على تنصيرهم بطريق الاضطهاد والعنف ، وتردد الكنيسة الإسبانية من جانبها هذا التحريض . ولكن هذه السياسة الباغية لم تحدث أثرها إلا ببطء ، ولم يتسع نطاقها إلا في أواخر القرن الخامس عشر عندما أشرفت الدولة الإسلامية في غرناطة على نهايتها . وكان قيام مملكة غرناطة في ذاته عنصراً من عناصر تكييف السياسة الإسبانية إزاء المدجنين . ذلك أن ملوك اسبانيا فوق ما كان يحدوهم من رغبة المحافظة على مصالحهم وسكينة بلادهم بايثار الرفق في معاملة المدجنين ، كانوا أيضاً يخشون سياسة الانتقام من النصارى المقيمين في غرناطة ، وفيما وراء البحر في بلاد المغرب ، بل وفي الممالك الإسلامية الأخرى مثل مصر وتركيا . على أن العوامل الاجتماعية والمحلية كانت من جهة أخرى تحدث أثرها في مجتمع المدجنين . ذلك أنه بالرغم من جميع الفوارق التي كانت تفصل بينهم وبين النصارى ، فقد جنح الكثير منهم إلى التشبه بغيرانهم ، وانتهوا بمضى الزمن وأثر الاختلاط والتزاوج إلى فقد دينهم ولغتهم ، وميزاتهم الحنسية والقومية ، والاندماج شيئاً فشيئاً في المجتمع الذي يعيشون فيه ؛ وهكذا أصبحوا بالتدريج قشتاليين ونصارى ، وأضحى علماءهم يكتبون كتب الشريعة بالقشتالية للرجوع إليها . وقام أيضاً بين المدجنين أدب قشتالي استمر عصوراً حتى بعد اخراج العرب المنتصرين من اسبانيا . على أن المدجنين لبثوا بالرغم من هذا الاندماج الاجتماعي تطبعهم مسحة خاصة تباعد بينهم وبين المجتمع النصراني القديم (١) .

تكونوا أجسامكم وأموالكم ملتزمة للاشبطال المذكور ، وذلك بشرط أن لا يكن لأحد منكم أن يخرج من الموضوع المذكور ، وكل واحد منكم لا يبيع ولا يرهن ميراث الاشبطال لنصراني أو يهودي » ونص في نهايه الوثيقة أنها ختمت بخاتم دون بطره غرسييس ملك نبره (انافار) ، وارتخت في الثامن عشر من فبراير سنة احد عشر وسبعمائة هجرية وهي توافق سنة ١٣١١ م . ووقعها من المدجنين سبعة منهم موسى الليلي الحجتي والمراتب بن وليد وعيسى بن موسى ولب يارس دريس . ووضعت أصولها الاسبانية فوق كل عبارة عربية .

ونلقى هذه الوثيقة العربية الاسبانية بالرغم من ركاكتها ضوءاً على أحوال المدجنين ، وظروف حياتهم في هذا العصر ، وظاهر منها أن المدجنين كانوا قد بدأوا يومئذ يفقدون كيانهم الاجتماعي وامتيازاتهم القديمة .

كان نظائر هؤلاء الأندلسيين المدجنين . جمهرة من النصارى الإسبان يعيشون في القواعد والثغور الإسلامية ويعرفون بالنصارى المعاهدين (أو بالإسبانية Mozarabes) وقد لبثوا عصوراً يتمتعون في ظل الحكم الإسلامي بضروب الرعاية والتسامح . وكانت الحكومات الأندلسية حتى في أزهى عصورها تحافظ على سياسة التسامح التي اتبعت ازاءهم منذ الفتح ، وتعاملهم بالرفق وتحترم شعائرهم الدينية وتقاليدهم القومية ، وتجنب أية محاولة لإرغامهم على اعتناق الإسلام . وكان من ضروب هذه الرعاية أن أنشئ في ظل حكومة قرطبة منذ عهد الحكم بن هشام ديوان خاص للنظر في شئون أهل الذمة (النصارى واليهود) يتولاه كبير من الأحرار النصارى يطلق عليه « قومس أهل الذمة » . وهكذا استطاعوا دائماً أن يحتفظوا بدينهم ولغتهم ومميزاتهم القومية والاجتماعية . وكانت حال النصارى في ظل الحكم الإسلامي أفضل بكثير مما كانت عليه أيام القوط ، وكثيراً ما كان يعهد اليهم بمناصب القيادة والوزارة أو ينتظمون في البلاط والحرس الملكي . ومع ذلك فقد كانت منهم دائماً طوائف متعصبة تسيء استعمال هذا التسامح ، وتحاول بمختلف الوسائل أن تكيدهم للإسلام ودولته ؛ ومن ذلك ما حدث في عهد عبد الرحمن بن الحكم (أواسط القرن التاسع الميلادي) من الحوادث الدموية التي أثارها تعصب النصارى (١) . وهكذا فان النصارى المعاهدين لم يشعروا دائماً بالولاء والإخلاص للدولة الإسلامية التي يعيشون في ظلها والتي توليهم كثيراً من رعايتها ورفقها ، وكانوا دائماً يتربصون بها وينتمزون الفرص لمناوأتها والكيدها ، ويستعدون عليها الوطن القديم ، كلما اضطربت شئونها وعصفت بها عواصف الثورة والحرب الأهلية . وكانت أعظم خيانة ارتكبوها من هذا النوع في أواخر أيام المرابطين حينما دعوا الفونسو الأول ملك أراجون الملقب بالمحارب عقب استيلائه على سرقسطة ، إلى أن يسير إلى غزو الأندلس بعد ما لاح من انحلال سلطان المرابطين فيها ؛ واستجاب ملك أراجون لتحريضهم وسار متحرقاً الأندلس بجيوشه ، والنصارى المعاهدون في كل قاعدة ينهضون إلى معاونته بوسائلهم وذلك في سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) حتى انتهى إلى فحص غرناطة وحاصرها حيناً ثم غادرها إلى الجنوب ، ونشب القتال بينه وبين المرابطين فهزمهم ، ولبث حيناً يعيث في تلك

(١) راجع كتابي « دولة الاسلام في الأندلس » ص ٢٦٠ — ٢٦٢ .

الأنحاء ، والنصارى المعاهدون يهرعون إلى شد أزره ، ويمدونه بالأقوات والمؤن . ثم عاد ثانية إلى اختراق الأندلس إلى أراجون وقد انضم إلى جيشه آلاف من النصارى المعاهدين . ولفتت هذه الغزوة أنظار المسلمين إلى خطر بقاء أولئك المعاهدين في الثغور والقواعد الأندلسية ، فانقلبت الحكومة الإسلامية إلى مطاردتهم ، وأفى القاضي أبو الوليد بن رشد بادانتهم في نقض العهد والخروج على الذمة ، ووجوب تغريبهم وإجلائهم عن الأندلس ، وأخذ أمير المرابطين علي بن تاشفين بهذه الفتوى ، وغربت ألوف من النصارى المعاهدين إلى إفريقية ، وفرقوا هنالك في أماكن مختلفة ، وهلك الكثير منهم بسبب الطقس وتغير وسائل التغذية ، وضم السلطان كثيراً منهم إلى حرسه الخاص ، وكانت هذه المحنة سبباً في تمزيق عصبتهم وازعاج شوكتهم (١).

على أن الكثرة الغالبة من المسلمين في القواعد الأندلسية الناهية كانت تؤثر الإلتجاء إلى أرض الإسلام والتشبث بلواء الدولة الإسلامية . وهكذا أخذت مملكة غرناطة تموج منذ أواسط القرن السابع الهجرى بسيول الوافدين عليها من بالنسية ومرسية وقرطبة وإشبيلية وغيرها ، وهكذا غدت المملكة الصغيرة تضيق بسكانها المسلمين بعد أن احتشدت بقايا الأمة الأندلسية الصغيرة في تلك المنطقة الضيقة . ومن المرجح أن مملكة غرناطة كانت تضم في عصورها الأخيرة زهاء خمسة أو ستة ملايين من الأنفس ، وكانت غرناطة وحدها تضم أكثر من نصف مليون نفس ، وكانت الأمة الأندلسية عندئذ خليطاً من أعقاب العرب والبربر والمولدين أو المسلمين الإسبان الذين أسلموا عند الفتح . وقد نما أولئك المولدون بمضى الزمن حتى غلوا عنصراً هاماً بين سكان الأندلس . وكان العرب والبربر ينظرون إليهم بشئ من الريب . وكانوا بالرغم من تمتعهم في ظل الحكومات الإسلامية بنفس الحقوق التي يتمتع بها باقي المسلمين ينزعون إلى الثورة في أحيان كثيرة ، وقد كان لهم شأن يذكر في إضرام بعض الثورات الخطيرة التي اضطرت ضد حكومة قرطبة مثل ثورة الربض وثورة طليطلة أيام الحكم بن هشام ، وثورة بني قسي في الثغر الأعلى وقد كان جدهم الكونت قسي قوطيا نصرانياً . وكان المولدون أعوان ابن حفصون أعظم وأخطر ثوار

(١) راجع الاطاحة ج ١ ص ٢١ و ٢٣؛ والحلل المشوية لابن الخطيب أيضا ص ٧٠ و ٨١؛ وتاريخ

المرابطين والموحدين ج ١ ص ١٥٥ و ١٥٧ .

الأندلس ، وهو الذى استطاع بمؤازرتهم ومؤازرة النصارى المعاهدتين أن يؤسس مدى حين مملكة مستقلة فى منطقة رنادة (أواخر القرن التاسع الميلادى) . وكان ابن حفصون مولداً يرجع إلى أصل نصرانى . على أن المولدين كان لهم موقف آخر ضد الغزاة القادمين من إفريقية . فقد وقفوا إلى جانب مواطنيهم الأندلسيين ضد المرابطين ثم الموحدين ، وكان زعيم الثورة ضد المرابطين رجل من أصل نصرانى هو محمد ابن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ومرسية . وكان يتحدث القشتالية ويلبس الملابس الإفريقية ويخشد فى جيشه كثيراً من الضباط والجنود النصارى . ولم يكن للعاطفة الدينية فى تلك العصور وفى تلك الظروف دائماً كبير أثر (١) ، بل كانت تغلب عليهم فى معظم الأحيان عواطف القومية والمصاحبة الخاصة . كذلك كان يمثل بين سكان غرناطة أقلية يهودية قوية معظمهم من طائفة « السمرديم » القديمة أو اليهود الإسبان . وكان لليهود فى ظل معظم الحكومات الإسلامية نفوذ يذكر . وكان منهم أعلام فى العساوم والآداب مثل الرئيس موسى بن ميمون الذى غادر الأندلس إلى الشرق فى أواسط القرن السادس الهجرى فراراً من اضطهاد الموحدين . وكان لهم مثل هذا النفوذ فى مملكة غرناطة ومنهم معظم أطباء البلاط والخاصة .

وكانت العروبة تغلب على السكان المدنيين فى مملكة غرناطة ، ولاسيما بعد أن نزع إليها على أثر سقوط القواعد الأندلسية فى يد النصارى كثير من سادة البطون العربية القديمة . ويذكر لنا ابن الخطيب عشرات من الأنساب العربية العريقة التى كان ينتمى إليها أهل غرناطة . ويصف الغرناطين بوسامة الوجوه ، واعتدال القدود ، ونضرة اللون ، والإناقة والفصاحة والإباء ، ويصف نساءهم بالجمال والرشاقة والسحر ، ونبل الخلال . أما الجند فكانت فيهم كثرة ظاهرة من البربر ولاسيما من قبائل زنانة ومغراوة وبنى مرين . ويرجع ذلك إلى أن طوائف البربر التى تخلفت منذ عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، كان أغلبها من الجند ، وقد بقيت على عهدتها تؤثر الجندية على الزراعة والمهن والفنون المدنية .

وهكذا كان الشعب الأندلسى حين آذنت شمسُه بالمغيب كما كان يوم مجده ،

يتكون من هذا المزيج العربي الإفريقي الذي أطلق عليه الغربيون عبارة « مسلمى الأندلس » The Moors .

وكانت الأمة الأندلسية تتمتع حتى في عصورها الأخيرة بحضارة زاهرة كانت مثار التقدير والإعجاب في سائر الأمم الأوروبية ، وكان يحج إلى معاهدها العلمية كثير من الطلاب من مختلف أنحاء أوروبا (١) .

وكان الشعب الغرناطي من أهل السنة يدين بمذهب مالك ، وهو المذهب الذي غلب على الأمة الأندلسية منذ أواخر القرن الثاني الهجري أعني منذ عصر هشام ابن عبد الرحمن الداخل ، ولم تتأثر غرناطة في نزعها المذهبية ولا تقاليدها الدينية السمجة ، بما تولى عليها من سيادة المرابطين والموحدين حيناً من الدهر .

(١) راجع الإحاطة ج ١ ص ٣٢ — ٣٨ ؛ واللمعة البدرية ص ٢٧ و٢٨ .

الفصل الرابع

طبيعة الصراع بين الأندلس واسبانيا النصرانية

المعركة الخالدة بين الأندلس واسبانيا النصرانية . تضاؤل قوة الأندلس . قيام مملكة غرناطة . مرحلة جديدة في الصراع . طبيعة هذا الصراع . العوامل القومية والدينية . نزعة الجهاد عند المسلمين . النزعة الصليبية عند النصارى . قيام الجماعات الدينية المحاربة في اسبانيا . ضعف العامل الدينى فى بداية النضال . السيد الكمبيادور . المرتزقة النصارى فى الجيوش الاسلامية . التجاء الأمراء النصارى الى حماية الملوك المسلمين . زواج الأمراء المسلمين بنساء من النصارى . ابن مردنيش وتشبهه بالقشتاليين . التحالف بين المسلمين والنصارى . التعاون بينهما أيام السلم . الفروسة وعلائق المودة . طبيعة حرب الاستعادة . صبغتها الدينية فى مراحلها الاخيرة .

يبدأ بقيام مملكة غرناطة فوق أنقاض الدولة الإسلامية الكبرى فى اسبانيا ، طور جديد من أطوار الصراع الخالد بين الأندلس واسبانيا النصرانية ، أو بعبارة أخرى طور جديد فيما يمكن أن نسميه فى تلك المرحلة المتأخرة من تاريخ الأندلس حرب الإستعادة القومية

وقد بدأت اسبانيا النصرانية حرب الاستعادة القومية منذ منتصف القرن الخامس الهجرى ، أعنى حينما انهارت الدولة الإسلامية القوية وانتشرت إلى عدة دويلات صغيرة متنافسة هى دول الطوائف . وبلغت الأندلس أيام الطوائف من التفرق والضعف مبلغاً عظيماً حتى لاح لاسبانيا النصرانية أن عهد الدولة الإسلامية أوشك على الزوال ، وأن الفرصة قد سنحت لتضرب ضربتها الحاتمة . وكانت مملكة قشتالة تزعم اسبانيا النصرانية يومئذ وتقودها فى ميدان الصراع مع المسلمين ، وكان ملكها الفونسو السادس يعمل بدكاء لاستغلال منافسة الدول الإسلامية وتفرق كلمتها ، ويغلب أميراً على أمير حتى انتهى بالاستيلاء على مدينة طليطلة من يد صاحبها يحيى بن ذى النون وذلك فى صفر سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) . وكانت طليطلة أول

قاعدة إسلامية عظيمة تسقط في يد اسبانيا النصرانية ، وكان سقوطها نذيراً خطيراً
للأمة الأندلسية يذكرها بقوة العدو المتربص بها ، ويحذرهما عاقبة التناوب والتفرق ،
فاجتمعت كلمة أمراء الطوائف يومئذ على الاستعانة باخوانهم فيما وراء البحر ، في عدوة
المغرب . وكان المرابطون يومئذ قد بسطوا سلطانهم على سائر بلاد المغرب وبدأت
دولتهم قوية شامخة ، فاستجاب زعيمهم يوسف بن تاشفين إلى صريخ الأندلس ،
وعبر البحر بقواته إلى الأندلس ، وكانت هزيمة اسبانيا النصرانية على يد جيوش
المغرب والأندلس في موقعة الزلاقة (٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م) فاتحة حياة جديدة للأمة
الأندلسية ، وبالرغم من أن المرابطين استولوا على الأندلس بعد ذلك بأعوام قليلة
وبسطوا حكمهم عليها ، فقد استمد الإسلام في اسبانيا من قوتهم قوة جديدة ، وعاد
الصراع الخالد بين الدولة الإسلامية وبين اسبانيا النصرانية يضطرم في نوع من تكافؤ
القوى . ولما اضمحل سلطان المرابطين في الأندلس بعد ذلك بنحو ستين عاماً
وخلفهم الموحدون في ملك المغرب والأندلس ، لبثت الدولة الإسلامية حقبة أخرى
في شبه الجزيرة عزيزة قوية الجانب نوعاً ، وإن كانت قد فقدت في تلك الفترة بعض
قواعدها التالدة مثل سرقسطة التي سقطت في يد النصارى سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) .
وأحرز الإسلام للمرة الثانية على النصر حاسماً في موقعة الأرك الشهيرة التي
انتصرت فيها جيوش يعقوب المنصور ملك الموحدين على جيوش الفونسو ملك
قشتالة (٥٩٣ هـ - ١١٩٥ م) وانكششت اسبانيا النصرانية مدى حين ، ولكنها عادت
فاجتمعت كلمتها تحت لواء الفونسو ملك قشتالة ، وسارت الجيوش النصرانية المتحدة
إلى لقاء المسلمين بقيادة ملك الموحدين محمد الناصر ولد يعقوب المنصور ، وأصيب
المسلمون في موقعة العقاب بهزيمة فادحة (٦٠٩ هـ - ١٢١٢ م) وأخذ سلطان الموحدين
في الأندلس يتداعى من ذلك الحين ، وبدأ مصير الأندلس يهتز في يد القدر ، وبدأت
اسبانيا النصرانية يومئذ في أوج سلطانها وقوتها . ولم تمض فترة وجيزة أخرى حتى
بدأت قواعدهم الأندلس العظيمة حسياً بيدنا من قبل تسقط تباعاً في يد النصارى ،
قرطبة (٦٣٣ هـ) فيلبسسية (٦٣٦ هـ) فدانبة (٦٣٨ هـ) فرسية (٦٤١ هـ) فإشبيلية
(٦٤٤ هـ) . وهكذا سقطت عدة من قواعدهم الأندلس التالدة ومنها عاصمة الخلافة
القديمة في يد اسبانيا النصرانية في مدى عشرة أعوام فقط ، ولقيت الأندلس أعظم محنها

فى تلك الفترة العصيبة ، ولاح لاسبانيا النصرانية أن حرب الاستعادة القومية لن تلبث حتى تتوج فى أعوام قلائل أخرى ، بالقضاء على ما بقى من تراث الإسلام فى الأندلس . ولكن شاء القدر أن تتمخض هذه الحقبة التى نغمرت الأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى ، عن قيام مملكة إسلامية جديدة هى مملكة غرناطة ، تتمتع بالرغم من صغرها بكثير من عناصر الفتوة والحيوية . وفى الوقت الذى خيل فيه لاسبانيا النصرانية أنها أضحت على وشك الإجهاز على المملكة الإسلامية ، كانت بذور صراع مرير طويل الأمد تنمو وتتوحد ، وإذا بالنهاية المرجوة تستحيل إلى بداية جديدة . استطالت هذه المرحلة الأخيرة من حرب الاستعادة زهاء مائتين وخمسين عاماً صمدت فيها المملكة الإسلامية لهجمات اسبانيا النصرانية المستمرة ، وعمات على استغلال كل فرصة للمطاوله والمقاومة ، وأبدت فى النضال على صغر رقعتها وضآلة مواردها بسالة عجيبة . وكانت كلما شعرت بالخطر الداهم يكاد ينقض عليها ويودى بحياتها استغاثت بجارتها المسلمة من وراء البحر ، أو عصفت باسبانيا النصرانية ريح الخلاف والتمرق فشغلها عن إرهاب المملكة الإسلامية حيناً ، حتى شاء القدر بعد طول النضال ان تنتهى هذه المعركة القاسية الطويلة إلى نهايتها المحتومة ، وأن تنهار المملكة الإسلامية الصغيرة أمام ضغط القوة القاهرة ، وأن تختتم حياتها الحبيدة أبية كريمة . وهنا يجدر بنا أن نحاول أن نلقى شيئاً من الضياء على طبيعة هذا النضال الذى استمر قروناً بين الأمة الأندلسية وبين اسبانيا النصرانية وإلى أى حد كانت تحدوه العوامل القومية أو الدينية .

كانت العوامل القومية والدينية تبرز بأدوار هذا النضال فى معظم أطواره ، وكانت تشتد حيناً وتخبو حيناً تبعاً لتطور الحوادث . ولما افتتح العرب اسبانيا ، وسيطرت الدولة الإسلامية على معظم أنحاءها ، قامت المملكة الإسبانية النصرانية الناشئة فى قاصية الشمال ترقب الفرص للتوحد والتوسع . بيد أنها لم تجرأ على تحدى المملكة الإسلامية والنزول إلى ميدان النضال قبل أواخر القرن التاسع ، فى ذلك الحين اضطرت الأندلس بالفن والثورات الداخلية وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثوار والنواحي . وكانت غزوات النصارى للأراضى الإسلامية يومئذ غزوات عيث يغلب عليها حب الانتقام والغنم . ولم يكن يطبعها شئ من تلك الروح الدينية

العميقة التي جمعت أوروبا النصرانية تحت لواء كارل مارتل لمحاربة العرب على ضفاف اللوار ، والتي حفزت شارلمان فيما بعد إلى عبور جبال البرنيه وغزو الأندلس أيام عبد الرحمن الداخل . غير أنه لما اشتد ساعد الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر (أوائل القرن العاشر) وظهرت المملكة الإسلامية في أوج قوتها وظفرها ، ونفذت الجيوش الإسلامية غير مرة إلى أعماق المملكة النصرانية ، وشعر النصارى بالخطر الداهم على كياناتهم ، أخذت العوامل الدينية والقومية تستيقظ من سباتها ، واتحدت المملكتان النصرانيتان ليون وناقار على مقاومة الخطر الإسلامي . وكانت المعارك التي نشبت في تلك الفترة في عهد أردونو الثاني وولده راميرو بين المسلمين والنصارى ، تحدها من الجانبين فوق نزعتها القومية ، نزعة دينية واضحة ؛ فكانت غزوات المسلمين تحمل طابع الجهاد ويهرع أهل الثغور إلى مرافقة الجيش لمقاتلة النصارى ، وكان يرافق الجند النصارى إلى القتال جموع غفيرة من الأحرار ورجال الدين يسقطون إلى جانب الفرسان في ساحة الوغى . وكانت هذه الصبغة القومية والدينية تبدو كلما اشتد الخطر من الجنوب على اسبانيا النصرانية ، ففي أواخر القرن العاشر في عهد الحاجب المنصور حينما اشتدت وطأة الأندلس على اسبانيا النصرانية وغزا المسلمون أقصى وأمنع معاقلها الشمالية ، اتحدت الممالك النصرانية الثلاثة ليون وقشتالة وناقار ضد المسلمين في جبهة دفاعية موحدة ؛ وبدأت كذلك موحدة الرأي والقوى حينما عبرت جموع البربر إلى الأندلس تحت لواء المرابطين لتتخذ الأندلس من خطر الفناء الذي كان يهددها من جراء تفرق ملوك الطوائف . وكانت موقعة الزلاقة تحمل في نظر المسلمين طابع الجهاد في سبيل الله ، وتطبعها في نظر النصارى صبغة صليبية واضحة . ولم تكن نصرا للأندلس على خصيمتها اسبانيا فقط ، ولكنها كانت نصر الإسلام على النصرانية أيضا . وكذا كان نصر المسلمين أيام الموحدين في موقعة الأرك ، ثم هزيمتهم بعد ذلك في موقعة العقاب ، يحمل كلاهما من الجانبين هذا الطابع الديني العميق . ويجب أن نذكر أن الحروب الصليبية قد بدأت في المشرق بعد موقعة الزلاقة بقليل واستمرت تضطرم بين المسلمين والنصارى في مصر والشام زهاء قرنين ، وبلغت ذروتها أيام الملك الناصر صلاح الدين معاصر السلطان يعقوب المنصور الظاهر في معركة الأرك . ولم يك ثمة شك في أن النزعة الصليبية التي دفعت بحجافل الغرب إلى الشرق الإسلامي كانت

تحدث صداها قويا في اسبانيا النصرانية وفي الغرب الإسلامي . وفي الوقت الذي كانت جيوش الصليبيين تحاول فيه أن تغزو مصر حصن الإسلام في الشرق في أوائل القرن السابع الهجري ، كانت قواعد الأندلس الكبيرة تسقط في أيدي النصارى ، وكانت اسبانيا النصرانية تبدو يومئذ ازاء الأندلس موحدة الرأي والقوى ، كما كانت الجيوش الأوربية الصليبية تسير إلى الشرق متحدة لتحقيق الغرض المشترك .

وقد ظهر صدى الزعة الصليبية في اسبانيا في شكل آخر هو قيام الجماعات الدينية المحاربة . ونحن نعرف أن جماعات الفرسان الدينية قامت في الشرق في ظل الصليبيين ، واشتهر منهم بالأخص جماعة فرسان المعبد أو « الداوية » كما تسميهم الرواية العربية ، وفرسان القديس يوحنا أو الأسبترارية . وكانت هذه الجماعات الدينية المحاربة ، تشد أزر الأمراء النصارى وتؤدي للصليبيين أثناء الحرب والسلام خدمات جليلة . وكما أن قيامها في المشرق كان أثرا من آثار المعارك الصليبية ، فكذلك كان قيامها في اسبانيا أثرا من آثار النضال بين اسبانيا النصرانية وبين اسبانيا المسلمة . ذلك أن بعض الفرسان والرهبان الورعين المتحمسين ، كان يحزنهم تفرق الملوك النصارى وتخاذلهم أحيانا في مقاتلة المسلمين ، وكانوا يرون أنه لا بد من قيام جماعات غيرة مخلصه من الفرسان تنذر نفسها للدفاع عن الدين وعن الأراضي النصرانية . وكانت قدوتهم في ذلك جماعات المسلمين من أهل الثغور والمرابطة ، فقد كانت هذه الجماعات المجاهدة التي ترابط عند حدود الأراضي الإسلامية تبدي في محاربة النصارى بسالة منقطعة النظير ، وتؤدي للجيوش الإسلامية أجل الخدمات . فلما أنشئت جماعة فرسان المعبد (الداوية) في بيت المقدس سنة ١١١٩م عقب قيام المملكة اللاتينية بقليل ، كان لقيامها صدى عظيم في اسبانيا ، ولم تمض أعوام قلائل حتى قامت أول جمعية محاربة دينية في أراجون في عهد الفونسو المحارب في صورة فرع لجماعة فرسان المعبد ، وأبدي الفونسو في تأييدها حماسة ، وانتظم في سلكها الكونت ريموند برنجار أمير برشلونة ، وأقطعت عدة حصون وأراض شاسعة على حدود أراجون ، كما احتلت عددا من الحصون في قشتالة ، ونمت بسرعة وأخذت تضطلع من ذلك الحين بدور هام في سائر المواقع التي تنشب بين النصارى والمسلمين .

وقامت في قشتالة بعد ذلك بقليل أعظم الجمعيات الدينية المحاربة ، ففي أواخر

عصر القيصر الفونسو ريمونديز (١) ملك قشتالة ، قامت حول سنة ١١٥٠ م جمعية فرسان دينية قوية في بعض أديار منطقة شلمنقة ، وسميت بجمعية القديس يوليان ، ثم سميت بعد ذلك بجمعية فرسان القنطرة. وفي سنة ١١٥٨ م قامت جمعية دينية محاربة أخرى ربما كانت أشهر وأقوى جماعات الفرسان التي ظهرت في اسبانيا في هذا العصر ، وهي جمعية فرسان قلعة رباح ، ونشأت لأول أمرها على يد جماعة من الرهبان الذين أبلوا في الدفاع عن تلك القلعة الحصينة ضد المسلمين ، واتخذت قلعة رباح مركزا لها . وقامت أيضا في البرتغال عدة فروع لفرسان المعبد (الداوية) وفرسان القديس يوحنا (الأستبارية) . وظهرت هذه الجمعيات الدينية المحاربة ولاسيما فرسان القنطرة وفرسان قلعة رباح في كثير من المعارك التي نشبت في تلك العصور بين المسلمين والنصارى ، وكان تدخلهم في كثير من الأحيان من عوامل النصر والإنقاذ للجيش النصرانية . بيد أنهم بالرغم من صفتهم الدينية والصلبية كانت تجدوهم بواعث وأطماع دنيوية ، وكان ظمأ الكسب واجتناء الغنائم روحهم المسيرة ، وكانوا يسيطرون على قلاع كثيرة وأراض واسعة ، ويعيشون في بذخ وترف بما يحصلون عليه من الإقطاعات والهبات والندور الوفيرة ، وكان تدخلهم في شئون السياسة والعرش يشهد أحيانا ويفضي إلى أحداث وتطورات خطيرة .

كانت اسبانيا النصرانية حينما بدأت حرب الاستعادة الحقيقية في أواسط القرن الثالث عشر عقب سقوط القواعد الأندلسية الكبيرة ، تجيش إلى جانب نزعتها القومية بهذه النزعة الصليبية الواضحة . على أنه يمكن القول أن ظهور هذه النزعة القومية والدينية العميقة في حروب اسبانيا النصرانية مع المسلمين لم يكن ملحوظا بصورة واضحة حينما كان التفوق في القوة لاسبانيا المسلمة أيام الدولة الأموية ، وحينما كان ثمة نوع من توازن القوى السياسية والعسكرية بين الأندلس واسبانيا النصرانية أيام المرابطين والموحدين . وتدل حوادث التاريخ الأندلسي حتى أواخر القرن الثاني عشر على أن التعصب القومي أو الديني لم يكن دائما ظاهرة بارزة في حروب المسلمين والنصارى ، فقد كان الفريقان المتحاربان على وجه العموم يحترم بعضهم بعضا ، وكان التعصب الديني قاضرا على جماعات الفقهاء من ناحية ، وعلى القساوسة

(١) وتعرفه الرواية الإسلامية باسم ادفنش بن رمنداو السليطين .

والأخبار من جهة أخرى ؛ ويوصف المسلمون في الأناشيد الإسبانية التمهيدية بأنهم خصوم شرفاء ، ولا يجيش النصارى نحوهم ببعض أكثر مما كان يجيش به المسلمون أنفسهم ، بعضهم نحو بعض في الحروب الأهلية التي كانت تنشب فيما بينهم^(١). يقول العلامة دوزي : « إن الفارس الإسباني في العصور الوسطى لم يكن يحارب من أجل دينه أو وطنه ، بل كان مثل « السيد » يحارب لكسب عيشه سواء في ظل أمير مسلم أو أمير نصراني . ولقد كان « السيد » نفسه أقرب إلى روح المسلم منه إلى الكاثوليكي »^(٢) وفي حياة السيد الكمبيادور (الكنبيطور) نفسه أوضح مثل لاتجاهات الفروسية الإسبانية في تلك العصور ، فقد نشأ السيد وظهر في كنف أمير مسلم وتقلب في خدمة الأمراء المسلمين والنصارى على السواء . بل لقد خدم الأمراء المسلمين أكثر مما خدم الأمراء النصارى ، ولو لم يمت وهو في خدمة الجانب النصراني لما حفلت به الأساطير الإسبانية ، ورفعته إلى مرتبة البطل القومي . وفي أحيان كثيرة نرى المرتزقة من الفرسان والجنود النصارى يعملون في الجيوش الإسلامية . وفي مواطن عديدة من تاريخ إسبانيا النصرانية ، نرى الملوك والأمراء النصارى خلال الحروب الأهلية يلوذون بحماية الأمراء المسلمين . فقد لجأ سانشو ملك ليون إلى حماية عبد الرحمن الناصر حينما استأثر أخوه اردونو بالملك دونه . ولجأ الفونسو السادس ملك قشتالة إلى حماية المأمون بن ذى النون أمير طليطلة ؛ حينما تغلب عليه أخوه سانشو الثاني وعاش في بلاطه حتى توفي أخوه ؛ فلما ارتقى عرش قشتالة كان أعظم مشاريعه أن ينتزع طليطلة من يد القادر بن ذى النون ولد المحسن إليه . وفي سنة ٩٩٠م قدم برمود (برمند) الثاني أخته زوجة لحاكم طليطلة المسلم . ولم يكن زواج الأمراء المسلمين من الأميرات والعقائل النصارى أمرا نادرا . وربما كان تاريخ بلنسية في القرنين الحادى عشر والثانى عشر أسطع مثل لهذا الامتزاج والتفاهم بين الفريقين المتحاربين ، ففيه يكثرت التحالف بين المسلمين والنصارى ولاسيما أيام « السيد » وبعدها . وقد كان أمير بلنسية في أواخر عهد المرابطين محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش^(٣) يرجع إلى أصل نصراني

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain, V. I. p. 51

(٢) Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen âge; V. II. p. 203 & 233.

(٣) ويرى البعض أن هذا الاسم مشتق من اسم « مرتينس » النصراني .

ويلبس الملابس القشتالية، ويعتمد في جيشه على الضباط والجنود النصارى؛ ولم يحجم أمراء المرابطين في الأندلس حينما انهارت دولتهم في إفريقية وبدأ الموحدون في انتزاع الأندلس من أيديهم، عن الإستعانة بالفونسو ريمونديز ملك قشتالة وحليفه جارسيا ملك ناغار على محاربة الموحدين. ولم ينقطع هذا التعاون بين المسلمين والنصارى حتى بعد أن بدأت مرحلة الإستعادة الأخيرة؛ فقد كان مؤسس مملكة غرناطة محمد ابن الأحمر في بداية أمره ينضوي حسب رأينا تحت حماية ملك قشتالة ويتعهد بمعاونته في حروبه ضد خصومه من المسلمين والنصارى. ونجد من الجانب الآخر أمراء النصارى يلوذون من وقت إلى آخر بحماية المسلمين حتى في ذلك العصر الذي تضاءلت فيه المملكة الإسلامية؛ ففري الإنفانت فيليب حينما ثار على أخيه الملك الفونسو العاشر ينتجى مع جماعة من النبلاء إلى حماية أبي يوسف المنصور ملك المغرب ويستقرون ضيوفا في بلاط غرناطة حتى انتهى ملك قشتالة إلى مصالحتهم واسترضائهم (١٢٧٠م). وفي سنة ١٢٨٢م اضطر الفونسو العاشر نفسه حينما ثار عليه ولده سانشو وانتزع منه العرش إلى الاستعانة بالسلطان أبي يوسف وأرسل إليه تاجه مقابل ما ينفقه على معاونته؛ فاستجاب إليه وأمدّه بالمال والجنود. وفي سنة ١٣٣٢م ثار حاكم «الفرنثيره» النصراني ضد مليكه الفونسو الحادى عشر وتحالف مع غرناطة وعاون بذلك في رد النصارى عن جبل طارق، وكانوا على وشك الاستيلاء عليه. ولما نشبت الثورة ضد ولده بيدرو القاسى (دون بطره) ونزع عن عرشه ونشبت بينه وبين خصومه موقعة مونثيل الفاصلة سنة ١٣٦٧م، كان إلى جانبه فرقة من الفرسان المسلمين، أمدّه بها حليفه الغنى بالله ملك غرناطة (١). وهكذا كان التعاون السياسى والحربى يجرى بين الفريقين من آونة إلى أخرى، حتى في تلك العصور التي مال فيها نجم الأندلس إلى الأفول، ولم تكن تحول دون عقده عوامل القومية أو الدين؛ وكانت العلاقات التجارية أيام السلم تجرى بانتظام، وتنظم بمعاهدات ودية بين الفريقين، ومن ذلك معاهدة الصداقة والتحالف التي عقدها محمد بن يوسف ملك غرناطة مع مارتين ملك أراجون لتنظيم العلاقات والمبادلات الحرة، وتنظيم التحالف السياسى بين المملكتين (سنة ١٤٠٥م) (٢).

(١) سوف نعود الى تفصيل هذه الحوادث في مواضعها بعد.

(٢) Dr. Lea : History of the Inquisition; V. I. p. 52-55

هذا ويجب ألا ننسى ما كان هنالك من علائق المودة والتحاب بين جماعات
الفرسان من الفريقين ؛ وقد كانت الفروسية الاسبانية في العصور الوسطى تقتبس
كثيرا من تقاليد الفروسية الإسلامية وخلالها الرفيعة ، وتنظر إليها بعين التقدير والاحترام .
وكانت مباريات الفروسية تجمع بين أنبل الفرسان من الخانين ، وكثيرا ما كانت
تعقد في العاصمة الإسلامية في جو من العطف والحماسة ، ويهرع إلى شهودها ألوف
من المسلمين والنصارى ؛ وكانت هذه الاجتماعات المثالية البهجة التي تجمع بين
العنصرين الخصمين ، أبعد ما يكون عن الإعتبارات القومية والدينية ، وقد كانت
غرناطة التي اشتهرت بفروستها النبيلة البارعة مسرحا لكثير من هذه المباريات الشهيرة .
تلك هي الصورة المتباينة التي تقدمها إلينا معركة السلطان والقوة ، ومعركة
الحياة والموت ، والحرية والاستعباد ، بين الأندلس واسبانيا النصرانية . ذلك أن بواعث
الدين والقومية لم تكن دائما كل شيء في هذا الصراع المضطرب الطويل الأمد . ومع ذلك
فقد كانت النزعة الدينية أو الصليبية تبدو كلما لاح شبح الخطر الداهم على كيان أحد
الفريقين ، أو كلما اتخذ النضال بين الفريقين صبغة حاسمة . ولما شعرت اسبانيا
النصرانية أنها أضحت بعد الاستيلاء على القواعد الأندلسية الكبيرة وتضاؤل المملكة
الإسلامية في مركز التفوق والغلبة ، لم يكن ثمة ما يدعو لأن تتخذ حرب الاسترداد
التي تلت بعد ذلك بين اسبانيا النصرانية وبين مملكة غرناطة ، ألوانا دينية أو قومية
عميقة . ذلك أن معركة السلطان قد بت فيها نهائيا بظفر اسبانيا النصرانية ، وأضحى
القضاء على الأندلس مسألة وقت فقط . وكانت اسبانيا النصرانية كلما حاولت
أن تتعجل تحقيق هذه الغاية القومية الخطيرة ، عاقها المنازعات والثورات الداخلية
أوردها تدخل الدولة الإسلامية القوية فيما وراء البحر . على أنه ما كاد يبدو تفكك
المملكة الإسلامية قويا واضحا ، وما كادت حرب الإستعادة تدخل في طورها الأخير ،
حتى بدت النزعة القومية والدينية واضحة قوية في جهود اسبانيا النصرانية للقضاء
على مملكة غرناطة . ولما اتحدت اسبانيا النصرانية نهائيا ، وتم اندماجها في مملكة
موحدة بزواج فرديناند ملك أراجون وإيزابيلا ملكة قشتالة ، اتخذت حروب غرناطة
الأخيرة لونا صليبية عميقا ، يذكها ويزيد في ضرامها حماسة هذه الملكة الوريعة
المتعصبة ، ومن حولها الأحيار المتعصبون ، وأسبغ على فرديناند لقب « الكاثوليكي »

وعلى إيزابيلا لقب « الكاثوليكية » ، وكان أول عمل قام به الحند القشتاليون حينما دخلوا غرناطة في الثاني من يناير سنة ١٤٩٢ ، ان رفعوا الصليب فوق أبراج الحمراء ، ورفعوا إلى جانب علم قشتالة علم القديس ياقب ، وأقام الرهبان القديس داخل قصر الحمراء ، ودفنت الملكة إيزابيلا وزوجها الملك فرديناند في غرناطة تنويها بظفرهما على الإسلام . وكانت سياسة اسبانيا النصرانية ازاء الأمة الأندلسية المغلوبة ، منذ إكراهها على التنصير في عصر فرديناند ، حتى مأساة النفي النهائي في عصر فيليب الثالث ، تقوم على بواعث دينية وصالبيية محضة يصوغها ويمليها أحبار الكنيسة ، ويدعمها ديوان التحقيق بقضائه الكنسي المروع ووسائله الدموية ؛ وعلى الحملة فقد كانت جهود اسبانيا النصرانية في القضاء على الأمة الأندلسية ، تمثل منذ بدايتها إلى نهايتها مأساة من أروع وأشنع مآسي التعصب الديني والسياسي التي عرفها التاريخ . وتلك المأساة التي استطالت منذ قيام مملكة غرناطة زهاء مائتين وخمسين عاما ، هي التي نستعرض حوادثها وظروفها فيما يلي من فصول هذا الكتاب .

الفصل الخامس

تاريخ اسبانيا النصرانية

منذ أوائل القرن الحادى عشر حتى قيام مملكة غرناطة

انقسام أسبانيا النصرانية فى القرن الحادى عشر . تنافس الامارات النصرانية . القضاء على مملكة نافارو وعودها . اتحاد قطلونية وأراجون . الممالك النصرانية خلال القرن الثانى عشر . تنافسها وتنازها . اجتماع كلمتها فى الصراع ضد المسلمين . قشتالة وأراجون . القيصر الفونسو ريمونديز . تحالف قشتالة وأراجون ضد نافار . اختفاؤها كمملكة مستقلة . فرديناند الثالث ملك قشتالة . اندماج مملكة ليون فى قشتالة . غزو فرديناند الثالث للأراضي الاسلامية . استيلاؤه على ابدة وقرطبة ومرسية . غزوه لأراضى ابن الأحمر . استيلاؤه على اشبيلية . وفاته وتلقيبه بالمقدس . مملكة أراجون . ملكها جاييم . غزوه للجزائر الشرقية . استيلاؤه على ميورقة . حصاره لبلسية وسقوطها . استيلاؤه على دانية . وفاته وتلقيبه بالفاتح .

لما نهارت الدولة الإسلامية الكبرى بالأندلس فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، وانتشرت إلى عدة دول وإمارات صغيرة متنافسة هى دول الطوائف ، كانت اسبانيا النصرانية تجوز حالة مماثلة من تعدد الإمارات والدول ، وإن لم تبلغ مابلغته اسبانيا المسلمة من الانقسام والتفرق . والحقيقة أن اسبانيا النصرانية كانت قد اتحدت فى أوائل القرن الحادى عشر تحت سلطان ملك قوى هو سانشو الثالث الملقب بسانشو الكبير (سانجه) ملك نافار (بلاد البشكنس) ، وكانت المملكة النصرانية تمتد يومئذ من جبال البرنيه شرقاً إلى شانتيه ياقب غرباً ، ومن خليج بسكونيه شمالاً إلى نهر دوييرة جنوباً . فلما توفى سانشو فى سنة ١٠٣٥ م قسمت مملكته الكبيرة بين أولاده الأربعة ، فاختص ولده فرديناند بقشتالة وجارسيا بنافار ، وحكم راميرو رقعة ضيقة تمتد جنوباً بشرق باسم مملكة أراجون ، فكان هذا مولد هذه المملكة النصرانية التى نمت بسرعة ولعبت فيها بعد أعظم دور فى تاريخ النضال بين اسبانيا المسلمة

واسبانيا النصرانية . وحكم ولده الرابع كونزالو ولاية سوبراب في أواسط البرنيه . وأما مملكة ليون وجليقيه في الغرب فكان يحكمها صهره برمود الثالث . وكانت تقوم ثمة في الشرق على شاطئ البحر إمارة قطلونية المستقلة ويحكمها آل برنجار . وهكذا انقسمت المملكة النصرانية إلى عدة وحدات متنافسة . وكان من حسن طالع المسلمين أن يقع هذا الانقسام في الوقت الذي انهارت فيه الدولة الإسلامية الكبرى ، وتقاسمت أشلاءها دول الطوائف الضعيفة ، وبذا قام مسدى حين نوع من التوازن بين القوتين المتداعيتين . على أنه بينما استمرت الأندلس فريسة الاضطراب والتفريق ، إذا باسبانيا النصرانية تسير بخطوات متعاقبة في سبيل الاتحاد والتوحد . ومع أن هذه الخطوات لم تكن دائماً ثابتة الأثر ، فانها كانت تعمل بمضى الزمن على توحيد قوى الممالك النصرانية لمواجهة العدو المشترك أعني اسبانيا المسلمة . وكانت قشتالة تعمل باستمرار لضم مملكة ليون اليها ، وقد نجحت غير مرة في تحقيق مشروعها بالعنف لمدى قصير . وكانت أراجون تتوق إلى ضم إمارة قطلونية التي كانت تحجبها عن البحر ، وكانت المملكتان تعملان معاً للقضاء على مملكة نافار الصغيرة ، وقد ائتمرتا بالفعل على اقتسامها بالعنف ، فاستولت قشتالة على القسم المحاذي لنهر إيبرو واستولت أراجون على القسم الواقع على جبال البرنيه ، وبذلك اختفت مملكة نافار مدى حين (١٠٧٦ م) . ولكن هذه المملكة الصغيرة الأبية عادت فاستردت استقلالها بعد ذلك بنحو ستين عاماً . وذلك أنه حينما توفي الفونسو المحارب ملك أراجون وتولى الملك مكانه أخوه الراهب راميرو سنة ١١٣٤ م ، رفع الناغار يون على العرش أميراً من سلالة ملوكهم القدماء هو جارسيا راميرز وانفصلت نافار بذلك عن أراجون وقشتالة ، واستأنفت حياتها المستقلة حقبة أخرى . ولكن أراجون وقطلونية أتيح لهما أن يتحدا غير بعيد في مملكة موحدة ، وذلك أن ريمون برنجار أمير قطلونية تزوج بترونلا ابنة راميرو ملك أراجون ، ولما توفي راميرو دون عقب تولى ريمون برنجار ايضاً ملك أراجون ، واتحدت المملكتان تحت تاج واحد ، وقامت مملكة أراجون الكبيرة من ذلك الحين .

كانت الممالك الإسبانية النصرانية خلال القرن الثاني عشر خمساً ، هي قشتالة وليون وأراجون ونافار والبرتغال . وكانت البرتغال قبل ذلك ولاية من ولايات جليقيه

أو إمارة تخضع لها ، ولم تنجز باستقلالها إلا في منتصف القرن الثاني عشر ، في عهد أول ملوكها المستقلين الفونسو هنريكيث (١) . وكانت هذه الممالك النصرانية الخمس دائمة الخلاف والتنافس ، هذا فضلا عما كان يعاينه كل منها من الثورات والحروب الداخلية حول وراثة العرش . بيد أن هذه الممالك المتنافسة كانت تجتمع دائماً تحت عاظم واحد هو علم النضال ضد اسبانيا المسلمة ، فزرى جيوشها تجتمع متحدة في موقعة الزلاقة للقاء الجيوش الإسلامية المتحدة (٤٧٨ هـ - ١٠٨٦ م) ، ونراها تجتمع في جبهة موحدة للقاء جيوش يعقوب المنصور في موقعة الأرك (٥٩٣ هـ - ١١٩٥ م) . وفي هاتين الموقعتين الحاسمتين اللتين انتصر فيهما المسلمون على النصراني ، كانت اسبانيا النصرانية تشعر كلها بشعور واحد ، هو شعور الخطر المشترك ازاء العدو المشترك . ولما نشبت موقعة العقاب وهي ثالثة المواقع العظيمة الحاسمة بين الإسلام والنصرانية في اسبانيا منذ الزلاقة (٦٠٩ هـ - ١٢١٢ م) اجتمع ملوك قشتالة وأراجون ونافار في قواتهم ومعهم أمداد كبيرة من ليون ومن البرتغال ، للقاء جيوش الموحدين بقيادة محمد الناصر ولد يعقوب المنصور ، وفيها أصيب المسلمون بهزيمة مروعة كانت بدء الانحلال العام في قوى الموحدين وقوى الأندلس . وهكذا كانت اسبانيا النصرانية تبدو ازاء اسبانيا المسلمة كما جدد الخطر موحدة الرأي والقوى . على أن الممالك النصرانية كانت تشعر فوق ذلك ، أن هذا التقسيم الجغرافي المتعدد يفت في قواها ولا يلائم مصالحها القومية . وكانت قشتالة وجارثها الشرقية أراجون هما أقوى الممالك النصرانية وأكبرها رقعة ، وكانت كلتاها تطمح إلى التوسع وضم ما يليها من أراضي الممالك الصغرى ، فكانت أراجون تطمح بعد انضمام قطلونية إليها إلى انتزاع ولايات نافار المجاورة لها ، وكانت قشتالة تطمح إلى ضم قرينتها وجارثها القديمة ليون وإلى انتزاع ما بقي من ولايات نافار المجاورة لها ، وهي ولايات البشكنس ؛ وكانت إمارة البرتغال الصغيرة الناشئة تدافع عن كيانها واستقلالها بصعوبة خلال هذه الأطماع المضطربة ، وقد استطاع ملك قشتالة القوى الفونسو ريمونديز (١١١٧ - ١١٥٧ م) الذي تلقب بالقيصر ، أن يبسط على اسبانيا النصرانية في أواخر حكمه حماية عامة ، على أنه لم يحكم بالفعل سوى قشتالة وليون وجليقية .

(١) وتسميه الرواية العربية « ابن الريق » تحريفاً لهنريكيث أو انريكو الاسبانية .

obeikandi.com

وفي أواخر القرن الثاني عشر ، عادت الحرب الأهلية تعصف بالممالك النصرانية ، ولاسيما بين نافار وبين قشتالة وأراجون. ونراها تضطرم عقب موقعة الأرك بين قشتالة وبين نافار وليون المتحالفتين على قتالها . وكانت نافار المملكة الصغيرة الباسلة تدافع عن استقلالها ازاء أطماع جيرانها الأقوياء دفاعاً متواصلاً ، ولاسيما في عهد ملكها سانشو السابع آخر ملوكها الأقوياء ، وكان سانشو ينظر إلى تحالف جارتيه قشتالة وأراجون بعين الحزرع ، ويستشعر منه الخطر الداهم على ملكه واستقلال أمته ، ولم يكتف بالتحالف مع ليون وهي المملكة الصغيرة الأخرى التي تخشى على استقلالها من أطماع قشتالة ، بل حاول أن يستمد عون سلطان الموحدين الظافر يعقوب المنصور ، وأن يعقد معه محالفة دفاعية ، وسار في بطانته إلى إشبيلية يحاول لقاءه ، ولكن الملك المنصور كان قد توفي في ذلك الحين . ولما عاد سانشو ألفى جاريه القويين بيدور الأول ملك أراجون والفونسو الثامن ملك قشتالة قد انقضا في غيابه على نافار يجاولان اقتسامها ؛ وبالرغم مما أبداه النافاريون من الدفاع الباسل فقد استطاع الفونسو أن ينتزع ولايات البشكنس وأن يضمها إلى مملكته (سنة ١٢٠٠ م) ، واستطاع بيدرو أن ينتزع بعض الأراضي المجاورة لأراجون ، ولم يبق من مملكة نافار القديمة سوى جزئها الشمالي . ولم تمض فترة قصيرة أخرى حتى ذهب هذا الجزء إلى حوزة حكام فرنسا الجنوبيين بطريق المصاهرة والوراثة (١٢٣٤ م) . وبذلك اختفت هذه المملكة الصغيرة الباسلة من بين ممالك اسبانيا النصرانية .

ولم يمض قليل على ذلك حتى اختفت مملكة ليون القديمة جارة قشتالة من الغرب . وذلك أنه لما توفي الفونسو الثامن (النبيل) ملك قشتالة في سنة ١٢١٤ م ، خلفه ولده الطفل هنري ، وكانت كبرى بناته الأميرة برنجاريا قد تزوجت بالفونسو التاسع ملك ليون ثم طلقت منه بعد أن رزقت بعده أولاد أكبرهم فرديناند . وثار في قشتالة مدى حين نزاع على وصاية الملك الطفل هنري ، ثم توفي قبل أن يبلغ رشده قتيلا في حادث . وكان الفونسو النبيل قد قرر في وصيته أنه اذا انقرض عقبه من الذكور ، فان العرش يؤول عندئذ إلى ابنته الكبرى برنجاريا ثم إلى أعقابها الشرعيين ، وهكذا قدر لفرديناند ولد برنجاريا من الفونسو التاسع ملك ليون ، أن يرقى عرش قشتالة باسم فرديناند الثالث ، وهو الذي عرف فيما بعد بفرديناند المقدس ، وكان من

أعظم ملوك قشتالة . ولما توفى أبوه ألفونسو التاسع ملك ليون وجليقية في سنة ١٢٣٠م خلفه أيضاً في مُلك ليون باعتباره وارث العرش الشرعى ، وبذلك اتحدت مملكتهما قشتالة وليون تحت تاج واحد ، واختفت مملكة ليون وجليقية القديمة من عداد الممالك الإسبانية النصرانية ، وأصبحت قشتالة بهذا الاتحاد أقوى الممالك الإسبانية وأوسعها رقعة وأغناها موارد ، واستطاع فرديناند الثالث بفضلته أن يحرز التفوق على المسلمين ، وأن يفتح قواعد الأندلس العظيمة التي عجز عن افتتاحها جميع أسلافه من الملوك النصارى .

وهكذا غدت الممالك الإسبانية النصرانية منذ أوائل القرن الثالث عشر ثلاثاً فقط هي قشتالة وأراجون والبرتغال ؛ وبينما قنعت البرتغال بالعمل على توطيد استقلالها وافتتاح الأراضي الإسلامية الواقعة في جنوبها وهي التي تعرف بولاية الغرب ، إذا بقشتالة وأراجون تعملان معا للمضى في تحقيق الغاية القومية والدينية الكبرى ، التي تعمل لها إسبانيا النصرانية منذ قرون ، وهي القضاء على الدولة الإسلامية بالأندلس واستخلاص تراث الوطن القديم .

في الوقت الذي انهارت فيه دولة الموحدين بالأندلس على أثر انهيارها في إفريقية ، وملك ابن هود مرسية وشرقي الأندلس ، وغلب ابن الأحمر على بعض القواعد الجنوبية ، مثل وادي آش وبياسة وجيان ، وغلب بعض الأمراء الموحدين على إشبيلية وما جاورها ، وأخذ هؤلاء الأمراء المسلمون يتربص بعضهم ببعض ، ويحاول كل منهم أن ينتزع مافي يد الآخر من القواعد والحصون ، شعرت مملكة قشتالة المتحدة القوية بأن الفرصة قد سنحت لتسديد ضربتها المميتة إلى الأندلس ، وبأدر ملكها فرديناند الثالث بغزو الأراضي الإسلامية . وكانت معظم القواعد والحصون المتاخمة لقشتالة دون دفاع يذكر ، فافتتح عددا من الحصون واستولى على مدينة ألبده في سنة ١٢٣٢م (٦٣١ هـ) . وفي أوائل سنة ١٢٣٦م سار فرديناند لغزو قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وكانت أثناء الحرب الأهلية قد انضوت تحت لواء ابن هود ونادت بطاعته ، وهاجم النصارى قصبته الشرقية بشدة وضربوا حولها الحصار ، وكان ابن هود يضع خططه يومئذ لغزو بلنسية فلم يستطع إنجاد المدينة

المحصورة ، خصوصا وقد علم أن النصارى هاجموا بقوات كبيرة ، فترك قرطبة لمصيرها ؛ ودافع أهل قرطبة عن مدينتهم أعظم دفاع ، واشتبكوا مع النصارى خارج المدينة وفي داخلها في عدة معارك دموية شديدة ، ولكن هذه البسالة لم تغن شيئا ، وسقطت عاصمة الأندلس القديمة ، ودخلها النصارى في ٢٩ يونيو سنة ١٢٣٦ (٢٣ شوال سنة ٦٣٣هـ) ورفعوا الصليب في الحال فوق مسجد جامع تنويرها بظفر النصرانية ، وكان سقوط قرطبة نذيرا بما انتهت إليه الأندلس من بالغ الضعف والقوضى .

ولما اشتدت الحرب الأهلية بين المسلمين في شرقي الأندلس ، بعث فرديناند الثالث ولده الفونسو إلى مرسية واستولى عليها صلحا في سنة ١٢٤٣م (٦٤١هـ) . ثم التفت إلى إمارة غرناطة الناشئة التي أخذت تنمو ويشهد ساعدها في ظل ابن الأحمر ، فانتزع منها حصن أرجونة وعدة حصون أخرى ، ووصلت قواته إلى أحواز غرناطة ، ثم أرسل جيشه لمحاصرة جيان في العالم التالي (سنة ١٢٤٥م) ، وشعر ابن الأحمر أنه عاجز عن صد هذا السيل الجارف ، فاضطر إلى عقد الصلح والانصواء تحت حماية ملك قشتالة حسبما فصلنا من قبل ، وبلغ فرديناند الثالث بذلك ذروة القوة والسلطان ، وأضحى الأندلس الجنوبية كلها تحت حمايته ورهن مشيئته .

وأخذ فرديناند في الوقت نفسه يتأهب لافتتاح إشبيلية أعظم قواعد الأندلس . وفي سنة ١٢٤٧م (٦٤٤هـ) بث قواته في أحواز إشبيلية فاستولت على معظم الحصون القريبة منها ، وسير فرديناند في الوقت نفسه أسطولا في مياه الوادي الكبير لكي يحول دون وصول الأمداد والمؤن إلى المدينة من ناحية البحر ؛ وكان يتولى الدفاع عن إشبيلية أمير من الموحدين هو السيد أبو عبد الله ، وأبدى المسلمون إصرار وجلدا في الدفاع عن مدينتهم ، ولكن النصارى أحكموا حصارها ، واستمر الحصار طول الشتاء ، ثم حشد فرديناند في العام التالي حولها قوات جديدة ، وسارع إلى نجدهته كثير من المتطوعة النصارى من أراجون والبرتغال ومنهم كثير من الأبحار والرهبان ، واضطر ابن الأحمر صاحب غرناطة إلى معاونة حليفه وحاميه فرديناند ببعض قواته ، وفي النهاية اضطرت الحاضرة الإسلامية الكبيرة إلى التسليم ، ودخلها النصارى في ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٨م (٦٤٦هـ) ، وفي الحال حولوا مسجد جامع إلى كنيسة جريا

على عاداتهم ، وبذلك وقعت معظم القواعد الإسلامية الكبرى في يد النصارى ، ولاح شبح الفناء للأندلس واضحا منذرا .

وتوفي فرديناند الثالث في مايو سنة ١٢٥٢م بعد أن حكم قشتالة خمسة وثلاثين عاما ، ودفن في إشبيلية آخر فتوحه ، وقد غدت منذ افتتاحها عاصمة لقشتالة مكان طليطلة ، وأُسبغ عليه أثناء حياته لقب « المقدس » تنويها بما تم على يديه من ظفر عظيم للنصرانية .

وأما مملكة أراجون فقد تخلفت حينما عن قرينتها قشتالة في مناهضة المسلمين ، وكان ملكها بيدرو الثاني الذى خلف أباه الفونسو على العرش في سنة ١١٩٦م أميراً وافر الشجاعة والفروسة ، ولكنه شغل بتنظيم شؤون مملكته الداخلية ومقاومة سلطان الأشراف ، ثم حجج إلى رومة ليتلقى تاجه من يد البابا . ولما عاد إلى أراجون شغل حينما بمحاربة الألبين وغيرهم من الملاحدة في جنوب فرنسا ، وتوفي قتيلا في إحدى المعارك (سنة ١٢٢٤م) . فخلفه ولده چايم (يعقوب) طفلا بالرغم من معارضة عميه سانشو وفرناندو ، وثار من جراء ذلك في أراجون حرب أهلية استمرت عدة أعوام ، ولكنها انتهت بفوز چايم وحزبه على الثوار ، فعاد إلى الجلوس على العرش دون منازع وذلك في سنة ١٢٢٧م .

وما كاد چايم يستقر في عرشه ، حتى اعتزم أن ينزل ميدان الحرب ضد المسلمين ، وأن يحاول الفوز بنصيبه من الأراضي الأندلسية ، فبدأ يغزو الجزائر الشرقية (جزائر البليار) القريبة من شواطئ أراجون ، وسير إليها في سنة ١٢٢٩م (٦٢٧هـ) حملة بحرية قوية . وكانت ميورقة وباقي الجزائر الشرقية يومئذ تابعة لإمارة بلنسية التي يسيطر عليها الأمير أبو جميل زيان بن مدافع ، ويحكمها من قبله الأمير محمد بن علي بن موسى ، فنزل النصارى إلى الجزيرة ولكنهم لقوا داخلها مقاومة عنيفة ، ودافع المسلمون عن جزيرتهم بمنتهى الشدة والبسالة ، ولكنهم اضطروا في النهاية إلى التسليم (صفر سنة ٦٢٧هـ) . ومع ذلك فقد استمرت المقاومة في شعب الجزيرة بعد ذلك حينما ، واضطر چايم أن يعود إليها مرتين حتى أتم إخضاعها في سنة ١٢٣٣م ، وسلمت منزقة وهي ثمانية الجزائر للنصارى بعد ذلك ببضع سنين .

وما كاد ملك أراجون يستولى على جزيرة ميورقة حتى وجه عنايته إلى فتح بلنسية ، وسار إلى غزوها في جيش ضخم في سنة ١٢٣٧ م ، واستطاع أن ينتزع الحصون الواقعة حولها تباعا . وكانت بلنسية قد سادها الاضطراب والفوضى من جراء الحرب الأهلية ، ومع ذلك فقد تأهبت بقيادة أميرها أبي حميل زيان لمقاومة النصارى ، وطوق النصارى المدينة من البر والبحر ، وبعث الأمير أبو حميل وزيره وكاتبه ابن الأبار القضاعى إلى أمير إفريقية (تونس) أبي زكريا الحفصى يستغيث به ، والى ابن الأبار بن يديه قصيدته الشهيرة التى مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا
وبادر الأمير أبو زكريا باغاثة بلنسية وبعث إليهم بعض الامداد والمؤن فى عدة سفن ، ولكنها لم تصل إلى المدينة المحصورة ؛ واستمر الحصار أشهرا واشتد الكرب بالمسلمين ، وضاعف النصارى هجماتهم حتى اضطرت المدينة المحصورة فى النهاية إلى التسليم بشرط أن يؤمن أهلها فى النفس والمال وأن يغادرها من شاء منهم ، وكان سقوط بلنسية فى يد النصارى فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٢٣٨ م (١٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ) .

وعلى أثر سقوط بلنسية تابع چايم غزواته لباقى الأراضى الإسلامية المجاورة لها ، واستولى على شاطبة فى سنة ١٢٤٤ م (٦٤١ هـ) . ولم تمض أشهر قلائل حتى استولى على ثغر دانية فى مايو سنة ١٢٤٤ م (آخر سنة ٦٤١ هـ) . وقرر چايم أن يجلب جميع السكان المسلمين عن الأراضى التى تم افتتاحها ، فهرعت منهم جموع غفيرة إلى مملكة غرناطة حتى ضاقت بسكانها ، وهاجر منهم كثيرون إلى إفريقية ، وأخذت القواعد والثغور الإسلامية القديمة تتحول تباعا إلى مدن نصرانية ، وأخذت الكثرة المسلمة تتحول بسرعة إلى أقلية من المدجنين ؛ تعيش فى ظل الحكم الإيبانى فى ذلة وخضوع .

وعنى چايم بعد ذلك باصلاح الشؤون الداخلية ، وتمت فى عهده عدة اصلاحات تشريعية خطيرة . ووضع مشروعا لتقسيم المملكة بعد وفاته بين أولاده الأربعة ، ولكنه لم يتحقق لوفاة أكبر أولاده الفونسو ، ولما أثاره من اضطراب فى أنحاء المملكة . وتوفى چايم بعد حكم طويل حافل فى سنة ١٢٧٤ م ، وقد أسبغت عليه فتوحاته فى الأراضى الإسلامية لقب « الفاتح »

الفصل السادس

مملكة غرناطة عقب وفاة ابن الأحمر

وعصر الجهاد المشترك بين بني الأحمر وبنو مرين

ولاية محمد الفقيه . تربص النصارى بالاندلس . بنو مرين ومبدأ أمرهم . القتال بينهم وبين الموحدين . ولاية أبي يحيى المريني . ولاية أبي يوسف يعقوب . انهيار دولة الموحدين . استغاثة الأندلس ببني مرين . استجابة السلطان أبي يوسف لصريخ الأندلس . إرساله حملة إلى الأندلس ثم عبوره إليها . موقف بني أشقيلولة . غزو أبي يوسف لبسائط الفرنتيره . موقعة استجة وغزوات أبي يوسف . عوده إلى المغرب . توجس ابن الأحمر وعتابه لأبي يوسف . عبور أبي يوسف إلى الأندلس للمرة الثانية . توغله في أراضي النصارى . اللقاء بينه وبين ابن الأحمر . استيلاء ابن الأحمر على مالقة . تفاهمه مع ملك قشتالة . انتصار المغاربة في البحر . زحفهم على ماربلة . القتال بينهم وبين ابن الأحمر . توجس أبي يوسف من العواقب . عودة التفاهم بينه وبين ابن الأحمر . أثر غرناطة وبنو مرين في شئون قشتالة . الفونسو العالم ملك قشتالة . ثورة ولده سانشو عليه . التجاؤه إلى السلطان أبي يوسف المنصور . عبور المنصور لنصرتة وغزوه لأراضي قشتالة . تفاهم ابن الأحمر مع سانشو . عود التفاهم بين ابن الأحمر والمنصور . توجس ابن الأحمر من المغاربة . عبور المنصور إلى الأندلس للمرة الرابعة . غزواته في أرض النصارى . سانشو ملك قشتالة يدعن للصلح . وفاة المنصور وولاية ولده أبي يعقوب . خروج أبو الحسن بن أشقيلولة في وادي آش . استرداد ابن الأحمر لوادي آش . اغارة ملك قشتالة على أراضي الأندلس . سير الجيوش المغربية إلى الأندلس . هزيمة المغاربة في البحر . عبور السلطان أبي يعقوب إلى الأندلس . غزوه لأراضي النصارى . توجس ابن الأحمر من نيات أبي يعقوب وتفاهمه مع ملك قشتالة . انتزاع سانشو لطريف من المغاربة . نكته لعهوده لابن الأحمر . سعيه للتفاهم مع أبي يعقوب وعبوره إلى المغرب . وفاة ابن الأحمر وخلالها . ولاية محمد الملقب بالملخوع . غلبة وزيره ابن الحكيم عليه . اضطراب العلاقات بين محمد والسلطان أبي يعقوب . استيلاء محمد على سبتة . مصرع أبي يعقوب . زحف عثمان بن أبي العلاء على المغرب . ولاية السلطان أبي ثابت لعرش المغرب . مسيره إلى الشمال ووفاته . ولاية السلطان أبي الربيع . هزيمة الأندلسيين ومقتل عثمان . الثورة في غرناطة . مقتل ابن الحكيم وعزل محمد المخلوع . ولاية السلطان أبي الجيوش نصر . استرداد المغاربة لسبتة . اضطراب الأحوال في عهد نصر . غزو القشتاليين لأرض الأندلس . مشروع فرديناند لغزو جبل طارق . حصار المرية وهزيمة النصارى . سقوط جبل طارق . الصلح بين ملك غرناطة وبنو مرين . امصانعة نصر ملك قشتالة . تعهده بأداء الجزية . الثورة في غرناطة . هزيمة نصر وعزله .

لما توفي محمد بن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة، خلفه في الملك ولده وولى عهده أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه . وكان مولده بقرناطة سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٥م) . وهو الذى رتب رسوم الملك للدولة النصرىة ، ووضع ألقاب خدمتها ، ونظم دواوينها وجبايتها ، وخلع عليها بذلك صفتها الملوكة الزاهىة . وكان يتمتع بكثير من الخلال الحسنة من قوة العزم ، وبعد الأهمة وسعة الأفق ، والبراعة السىاسىة . وكان عالماً أديباً يقرض الشعر ، ويؤثر مجالس العلماء والأدباء . ولأول عهده نشط ملك قشتالة الفونسو العاشر إلى محاربة المسلمين ، وكان مثل أبىه فرديناند الثالث يرى أن دولة الإسلام بالأندلس قد دنت نهايتها ، ويتربص الفرصة بالمملكة الإسلامىة الفتىة ، ويحاول أن يعمل كأبىه للقضاء عليها قبل استفحال أمرها . ولم يكن ملك قرناطة بغافل عن الخطر الذى يتهده من مشاريع قشتالة . وكان محمد بن الأحمر قد أوصى ولده بالحرص على مخالفة بنى مرين ، ملوك العدو والاستنجاد بهم كلما لاح شبح الخطر الداهم (١) . وكان بنو مرين وهم الذين استولوا على ملك الموحدين بعد ذهاب دولتهم ، يومئذ فى عنفوان قوتهم ، وكانت مملكتهم الفتىة ، تشغل فى نظر الأندلس ونظر إسبانيا النصرانىة نفس الفراغ الذى تركه ذهاب دولة المرابطين ثم دولة الموحدين ، وكان من الطبقى أن تؤدى هذه الدولة الحديده فى ميدان السىاسة والحرب نحو الجزيرة الإسبانىة ، نفس الدور الذى أدته المملكتان المغربىتان الذاهبتان .

وبنو مرين بطن من بطون قبىلة زنانة البربرىة الشهىرة ، التى ينتمى إليها عنة من القبائل التى لعبت أدواراً بارزة فى تاريخ المغرب ، مثل مغراوة ومغىلة ومديونة وجراوة وعبد الواد وغيرهم . ومع ذلك فإن بنى مرين يرجعون نسبهم إلى العرب المضرىة ، وذلك بالانتساب إلى بر بن قيس عىلان بن مضر بن نزار . وجدهم الأعلى بجرماط بن مرين بن ورتاجى بن ماخوخ (٢) . وكانت القبائل المرىنىة فى بداية أمرها من العشائر البدوىة المتنقلة ، تجول فى صحارى المغرب وهضابه جنوبى تونس ، وتسير نحو المغرب أيام الصىف . وفى فاتحة القرن السابع الهجرى ، نشبت الحرب

(١) الذخىرة السنىة ص ١٦٣ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ١٩١ .

(٢) الذخىرة السنىة ص ١٠ و ١٦١١ .

بينهم وبين بني عبد الواد : فتوغلوا في هضاب المغرب . ونزأوا بوادي ملوية الواقعة بين المغرب والصحراء وأقاموا هنالك حيناً . وكانت قوى الموحدين قد تضعفت منذ موقعة العقاب (٦١٩ هـ) (١) وسرت إلى دولتهم عوامل التمكك والانحلال . ولما توفى ملكهم الناصر ، وهو المهزوم في موقعة العقاب سنة ٦١٠ هـ ، ولى بعده ولده يوسف المستنصر . وكان فتي حدثاً ضعيف الحمة والحلال . فانكب على لهوه وساءت أمور المملكة وسرت إليها الفوضى . ففي تلك الآونة التي بدأ فيها ملك الموحدين يهتز في يد القدر ، نفذ بنو مرين إلى المغرب ، وتوغلوا في جنابته ، واشتبكوا مع الموحدين لأول مرة في سنة ٦١٣ هـ ، إذ حاول الملك المستنصر أن يقضى عليهم ، فأرسل جيوشه لقتالهم ولكنها هزمت . ووصل بنو مرين إلى أحواز فاس ؛ وكان أمير بني مرين يومئذ أبو محمد عبد الحق بن خالد بن يحيى ، ولكنه قتل في بعض المواقع في سنة ٦١٤ هـ ، فخلفه في الإمارة ولده أبو سعيد عثمان ، واستمر يقود قومه في ميدان النضال ضد الموحدين (٢) .

وفي سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) سير الرشيد ملك الموحدين جيشاً لقتال بني مرين . فهزم الموحدون هزيمة شديدة ، واستولى المرينيون على معسكرهم . وتوفى الرشيد في العام التالي . فخلفه في الملك أخوه أبو الحسن السعيد ، واعتزم أن يضاعف الجهد للقضاء على بني مرين ، فسير لقتالهم في سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) جيشاً ضخماً ونشبت بين الموحدين وبين بني مرين موقعة هائلة هزم فيها بنو مرين وقتل أميرهم أبو معرف محمد بن عبد الحق ، وكانت ضربة شديدة هلت من عزائمهم مدى حين . وتولى إمارة بني مرين بعد مقتل أبي معرف ، أخوه أبو بكر بن عبد الحق الملقب بأبي يحيى . وفي عهده اشتد ساعد بني مرين واستولوا على مكناسة (٦٤٣ هـ) ثم زحفوا على فاس واستولوا عليها بعد حصار شديد (٦٤٨ هـ — ١٢٥٠ م) . وكان سقوط فاس حاضرة المغرب القديمة أعظم ضربة أصابت مملكة الموحدين ، وكان ذئير الإنهيار النهائي . ثم استولوا على سجلماسة ودرعة (٦٥٥ هـ) . ولما توفى أبو يحيى سنة ٦٥٦ هـ ، تولى أخوه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من بعده رياسة بني مرين

(١) الذخيرة السنية ص ٥٢ و ٥٣ ؛ والاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص ٣٠٥ .

(٢) الذخيرة السنية ص ٩٣ و ٩٤ .

وجعل مدينة فاس حاضرة ملكه . وفي سنة ٦٥٧هـ نشبت الحرب بين بنى مرين وبين الأمير يغمراسن بن زيان ملك المغرب الأوسط ، فهزم يغمراسن وارتد إلى تلمسان . وفي العام التالي (٦٥٨هـ) هاجم النصارى (الاسبان) في سفنهم ثغر سلا فجأة ، وقتلوا وسبوا كثيرا من أهله ، فبادر أبو يوسف بانجاده ، وحاصر النصارى بضعة أسابيع حتى جلوا عنه .

ثم كانت الموقعة الحاسمة بين الموحدين وبنى مرين ، ففي أواخر سنة ٦٦٧هـ (١٢٦٩م) سار الواثق بالله المعروف بأبي دبوس ملك الموحدين من مراکش لقتال بنى مرين ، والتقى الجمعان في وادى غفو بين فاس ومراكش ، فهزم الموحدون بعد معركة شديدة ، وقتل منهم عدد جم ، واستولى أبو يوسف على معسكرهم ومؤنهم وخزائنهم ، ثم سار إلى مراکش فدخلها في المحرم سنة ٦٦٨هـ ، وتسمى بأمر المسلمين ، وبذلك انتهت دولة الموحدين في المغرب ، كما انتهت في الأندلس ، بعد أن عاشت زهاء قرن وثلث قرن ، وقامت مكانها دولة بنى مرين تسيطر على أنحاء المغرب الأقصى كله ، وتستقبل عهدا جديدا من القوة والسلطان (١) .

إلى تلك الدولة الحديدية الفتية ، كانت تتجه أنظار الأندلس كلما لاح لها شبح الخطر الداهم . وقد شاء القدر أن تلعب دولة بنى مرين وريثة المرابطين والموحدين ، في حوادث الأندلس الداخلية والخارجية أعظم دور . ولم تفت مؤسس مملكة غرناطة أهمية التحالف مع بنى مرين والاستنصار بهم ، فبعث قبيل وفاته بقايل حسبها رأينا إلى السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور يطلب إليه غوث الأندلس وإنجاده . وكان السلطان أبو يوسف حينما وصله صريح ابن الأحمر (٦٧٠هـ) يسير إلى غزو تلمسان ، فلما وقف من الرسل على حال الأندلس وما يهددها من الأخطار ، جمع أشياخ القبائل واتفق الجميع على وجوب إنجاد الأندلس والجهاد في سبيل الله ، وأرسل السلطان إلى الأمير يغمراسن صاحب تلمسان يعرض عليه عقد الصلح ، لكي يتمكن من العبور إلى الأندلس ، فأبى واقتتل الفريقان على مقربة من وجده ، في شهر رجب سنة ٦٧٠هـ (١٢٧٢م) فهزم

(١) راجع في أصل بنى مرين ونشأتهم ، الذخيرة السنية ص ١٠ و ١٦ و ١٩ و ٩٩ و ١٢٣ و ١٢٤ ؛

والاستقصاء ج ٢ ص ١٤ و ١٣ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ١٦٦ — ١٨٠

يغمراسن وفرجريجا(١) ، وعاد أبو يوسف مظنرا إلى المغرب . وهو يعتزم استجابة دعوة الأندلس وإنجادها .

على أنه مضى أكثر من عامين قبل أن تسنح له الفرصة المرجوة . فلما تولى محمد الفقيه الملك ، أرسل عقب ولايته بتقليل وفدا من أكابر الأندلس إلى ملك المغرب ورسالة استغاثة مؤثرة ، فشرحوا له حال الأندلس من الضعف ونقص الأهبة ، وتكالب العدو القوى عليها ، واستصرخوه للغوث والجهاد . ومما جاء في رسالة ابن الأحمر إلى أبي يوسف بعد الديقاجة :

مرين جنود الله أكبر عصابة فهم في بني أعصارهم كالمواسم
مشنفة أسماهم لمدايح مسورة إيمانهم بالصوارم

« تطول علينا بمعلوم حدك ومشهود جدك ، قد جعلك الله رحمة تحيي عيشها بجيوشك السريعة ، وخالفك سلما إلى الخير وذريعة ، فتد تطاول العدو النصراني على الإسلام ، واهتضم جناحه كل الإمتصام ، وقد استخلص قواعدها ومزق بلدانها ، وقتل رجالها وسبي ذراريتها ونساءها ، وغنم أموالها . وقد جاء بإبراقة وإرعاده ، وعدده وإيعاده ، وطلب منا أن نسلم له ما بقي بأيدينا من المنابر والصوامع والمحاريب والجوامع ، ليقيم بها الصليبان ، ويثبت بها الأقسمة والرهبان . وقد وطأ الله لك ملكا عظيما شكرك الله على جهادك في سيبله ، وقيامك بحقه وإجهادك في نصر دينه وتكميله ، ولديك من نية الخير ، فابعث باعث بعثك إلى نصر مناره ، واقتباس نوره ، وعندك من جنود الله من يشترى الجنات بنفسه . فان شئت الدنيا فالأندلس قطوفها دانية ، وجناتها عالية ، وإن أردت الآخرة بها جهاد لايفتر ، وهذه الجنة ادخرها الله لظلال سيوفكم ، واحتمال معروفكم ، ونحن نستعين بالله العظيم وبملائكته المسومين ، ثم بكم على الكافرين » (٢) .

ثم تابعت رسل ابن الأحمر وبني أشدقيلولة إلى السلطان أبي يوسف ، ينوهون بالخطر الداهم الذي يهدد الأندلس ، ويلتمسون إليه المبادرة بالإسعاف والإمداد ، فاستجاب السلطان أخيرا لدعوتهم ، وكتب إلى ابن الأحمر يطمئنه ، ويعرب عن

(١) الذخيرة السنية ص ١٤٨ ؛ والاستقصاء ج ٢ ص ١٦ .

(٢) راجع هذه الرسالة بأكملها في الذخيرة السنية ص ١٥٩ — ١٦١ .

عزمه على الجواز إلى الأندلس في فاتحة سنة أربع وسبعين ، ومما جاء في رسالته :
« وإنا لرجو أن نصلكم بنفوس صلح جهرها وسرها ، ونسقى بماء الثلج
واليقين غرها ، ونقدم عليكم بما يبسط نفوسكم ويسرها ، ويطلع لها الفرح من
المكارة ويذهب عسرها ، فلتطب نفوسكم برحمة الله وعونه ، ولتفرحوا بفضل الله
وصونه ، ونحن قادمون عليكم في إثر هذا لإنشاء الله ، ووعدنا بوفاء يعين الله على
أعدائه » (١) .

وهكذا اعترم السلطان أبو يوسف أن يؤدي رسالة المغرب التاريخية في حوادث
الأندلس ، وكان بنو مرين في عنفوان دولتهم يجيشون بنزعة الجهاد الفتية . وخرج
السلطان من فاس في رمضان سنة ٦٧٣هـ برسم الجهاد في الأندلس ، وأرسل للمرة
الثانية إلى الأمير يغمراسن صاحب تلمسان يعرض الصلح توحيداً للكلمة وتعصيماً
للجهاد . فقبل يغمراسن وتم الصلح . وبادر السلطان فجهز ولده أبا زيان^(٢) في خمسة
آلاف مقاتل فعبّر البحر من قصر الحجاز (قصر مصمودة) إلى الأندلس ونزل بنغر
طريف في شهر ذي الحجة سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٥م) ونفذ إلى أرض النصراري حتى
شريش ، وعاث فيها وعاد مثقلاً بالسبي والغنائم ، وقدم إليه ابن هشام وزير ابن
الأحمر ثغر الجزيرة فنزل فيه ، وجاز ابن هشام إلى العدو فلقى السلطان أبا يوسف
في معسكره على مقربة من طنجة . وكان السلطان قد استكمل أهبته ، فعبّر من قصر
الحجاز إلى الأندلس في صفر سنة ٦٧٤هـ (يولييه ١٢٧٥م) ، في جيش كثيف من
البربر داعياً إلى الجهاد على سنة أسلافه المرابطين والموحدين . وكان أبو يوسف قد
اشترط على ابن الأحمر حينما استنجد به ، أن ينزل له عن بعض الثغور والقواعد
الساحلية ، لتنزل بها جنوده في الذهب والإياب فنزل له عن رندة وطريف والجزيرة ،
ونزل أبو يوسف بجيشه في طريف ، وهرع ابن الأحمر وبنو أشقيلولة إلى لقائه ،
واهتزت الأندلس كلها لعبور ملك المغرب . ولكن ابن الأحمر مالبت أن غادره
مغضباً لما رآه من تدخله في شئون الأندلس بصورة مريبة . ذلك أن بنى أشقيلولة

(١) راجع نص رسالة السلطان أبي يوسف بأكمله في الذخيرة السنية ١٦٢ و ١٦٣ .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٦٤ ، ولكن ابن خلدون يقول إن السلطان بعث الجند مع ولده مندبل

(ج ٧ ص ١١٩) ومندبل حفيد السلطان أبي يوسف .

أصهار بنى الأحمر ، وفي مقدمتهم محمد بن أشقيلولة زعيم الأسرة وزوج أخت محمد ابن الأحمر وأخوه أبو الحسن زوج ابنته ، كانوا يجيشون نحو عرش غرناطة بأطماع خفية . وكان أبو محمد ممتعا بمالقة مغاضبا للملك غرناطة حسبا قدمنا . فلما عبر أبو يوسف إلى الأندلس سار إليه وانضوى تحت لوائه ، ولم يفلح أبو يوسف في التوفيق بين ابن الأحمر وبين أصهاره ، وخشى ابن الأحمر عاقبة هذا التحالف بين أصهاره وبين أبي يوسف ، فارتد إلى غرناطة حذرا متوجسا .

ونفذ السلطان أبو يوسف بجيشه إلى بسائط الفرنتيره^(١) وكانت في يد النصارى وعاث فيها . ثم توغل غازيا ينتسف الضياع والمروج ويسبي السكان ، حتى وصل إلى حصن المقورة وأبده على مقربة من قرطبة . وعندئذ عول القشتاليون على لقائه دفاعا عن أراضيمهم . وخرج القشتاليون في جيش ضخم تقدره الرواية الاسلامية بنحو تسعين ألف مقاتل^(٢) ، وعلى رأسهم قائدهم الأشهر صهر ملك قشتالة الدون نونيو دى لارا الذى تسميه الرواية الاسلامية « دونونة أو دننه أو ذنونة » . وكان أبو يوسف قد وصل عندئذ بجيشه إلى ظاهر إستجة ومعه حشد عظيم من الغنائم والأسرى ، فأغلقت المدينة أبوابها ، واستعدت للقتال ، ووضع أبو سيف الغنائم في ناحية تحت إمرة حرس خاص حتى لا تعيق حركاته ، وعقد لولده أبى يعقوب على مقدمته وخطب جنده وحثهم على الجهاد والموت في سبيل الله . ثم تقدم للملاقاة النصارى ومعه بعض قوات الأندلس برياسة بنى أشقيلولة . ووقع اللقاء بين المسلمين والنصارى على مقربة من إستجة في اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٧٤هـ (٩ سبتمبر ١٢٧٥م) ، فنشبت بين الفريقين معركة سريعة هائلة هزم النصارى على أثرها هزيمة شديدة ، وقتل قائدهم الدون نونيو دى لارا وعدة كبيرة منهم^(٣) . وكان نصرا عظيما أعاد إلى الأذهان ذكريات موقعة الزلاقة وموقعة الأرك ، وكان أول نصر باهر يحرزه المسلمون على النصارى منذ موقعة

(١) الفرنتيره هي السهل الواقع في غربى مثلث إسبانيا الجنوبي (الجزيرة) ويمتد من قادن جنوبا حتى طرف الفار .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٦٩ و ١٧٠ .

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩١ ؛ واللحة البدرية ص ٤٤ ؛ والاحاطة ج ١ ص ٣٧٢ ؛ والذخيرة السنية

العقاب ومنذ انهيار الدولة الإسلامية بالأندلس ، وسقوط قواعدها العظيمة .
وتبالغ الرواية الإسلامية في تقدير خسائر النصارى فتقول إنه قتل منهم في الموقعة
ثمانية عشر ألفا جمعت رؤوسهم وأذن عليها المؤذن لصلاة العصر ، في حين أنه لم
يقتل من المسلمين سوى أربعة وعشرون رجلا^(١) .

وبعث السلطان أبو يوسف برأس دون نونيو إلى ابن الأحمر ، فقبل إنه بعثها
بدوره إلى ملك قشتالة مضمخة بالطيب مصانعة له وتوددا إليه . وكتب أبو يوسف
إلى العدو رسالة يشرح فيها حوادث الموقعة ، وما انتهت إليه من نصر باهر ، فقرئت
على المنابر ، وكتب رسالة مماثلة إلى ابن الأحمر فرد عليه بالشكر والدعاء . ورفع
ابن أشقيلولة إلى أمير المسلمين (أبو يوسف) قصيدة يهنئه فيها بالنصر جاء فيها :

| | |
|----------------------------|----------------------------|
| هبت بنصركم الرياح الأربع | وسرت بسعدكم النجوم الطلع |
| وأنت لنصركم الملائك سيفا | حتى أضاق بها الفضاء الأوسع |
| واستبشر الفلك الأثير تيقنا | أن الأمور إلى مرادك ترجع |
| وأمدك الرحمن بالفتح الذي | ملا البسيطة نوره المتشعشع |

ولبت أبو يوسف بالجزيرة الخضراء بضعة أسابيع قسمت فيها الغنائم واستراحت
الجند . ثم خرج للمرة الثانية في جمادى الأولى سنة ٦٧٤ هـ ، وتوغل غازيا في أراضي
قشتالة حتى وصل إلى أحواز إشبيلية ؛ فأغلقت المدينة أبوابها ، وعاث أبو يوسف
في تلك الأنحاء ، ثم سار إلى شريش فضرب حولها الحصار ، فخرج إليه زعماء المدينة
ورهبانها وطلبوا إليه الأمان والصلح ، فأجابهم إلى طلبهم وعاد إلى قواعده مثقلا
بالغنائم والسبي . وقضى بضعة أسابيع أخرى بالجزيرة الخضراء ، ثم عبر البحر إلى
المغرب في أواخر شهر رجب ٦٧٤ هـ ، بعد أن قضى بالأندلس زهاء خمسة أشهر .

بلى أن هذا النصر الباهر ، الذي أحرزه السلطان أبو يوسف المريني على
النصارى ، لم يحدث أثره المنشود في بلاط الأندلس . ذلك أن محمد بن الأحمر ، جنح
إلى الارتياح في نيات ملك المغرب ، وخصوصا منذ أسبغ السلطان حمايته على بني
أشقيلولة ، وغيرهم من الخوارج على ملك غرناطة ، ومثلت بذهنه مأساة الطوائف

(١) الذخيرة السنية ص ١٧٣ .

وغدر المرابطين بهم (١). وبعث ابن الأحمر إلى السلطان قبيل مغادرته الجزيرة ، يعاتبه لتصرفه في حقه بقصائد مؤثرة يستعطفه فيها ويستنصره ، والسلطان يجيبه عنها بقصائد مثلها . ومن ذلك قصيدة من نظم أبي عمر بن المرابط كاتب ابن الأحمر هذا مطلعها :

من منهم في الأرض أو من منجد
بأحابة وإنابة أو مسعد

هل من معبى في الهوى أو منجدى
هذا الهوى داح فهل من مسعف

وسنها في الاستغائة :

ما دهانا من ردى أو من ردى
من حرمة ومحبة وتودد
وسيوفكم للشار لم تتقاسد
خدمت وكانت من قبل ذا تتوقد
وأحق من في صرخة بهم ابتدى
في المغرب الأدنى لنا والأبعد
منه إلى القرض الأحق الأوكد
تأسون للدين الغريب المفرد (٢)

أفلا تذوب قلوبكم إخواننا
أفلا تراعون الأذمة بيننا
أكذا يعيث الروم في إخوانكم
ياحسرتي لحمية الإسلام قد
أبني مرين أنتم جيراننا
أبني مرين والقبائل كلها
كتب الجهاد عليكم فتبادروا
أنتم جيوش الله ملي فضائه

وفي أوائل سنة ٦٧٦هـ توفي أبو محمد بن أشقيلولة صاحب مالقة ، فعبر ولده محمد إلى المغرب ونزل عنها للسلطان ، فبعث إليها السلطان حاكما من قبله ، فزاد ذلك في توجس ابن الأحمر وأرسل وزيره أبا سلطان عزيز الداني في بعض قواته إلى مالقة ، ليحاول الاستيلاء عليها فلم يوفق . ولم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى عبر السلطان أبو يوسف المنصور البحر إلى الأندلس للمرة الثانية في سنة ٦٧٧هـ (١٢٧٨م) ، ونزل بمالقة فاحتفل به أهلها ، ثم توغل بجيشه في أرض النصرارى يعيث فيها ومعه بنو أشقيلولة في جندهم حتى أحواز إشبيلية . واجتنب القشتاليون لقاءه . ثم دعا ابن الأحمر إلى لقاءه ، فوافاه عند قرطبة والريب يملا نفسه ، وتبادل

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٨ .

(٢) نقل إلينا ابن خلدون هذه القصيدة بأكملها (ج ٢ ص ١٩٨ - ٢٠٠) وفيها كثير من المعاني التي

وردت في مرثية أبي البقاء الرندي ، كما أشار إلى ردود السلطان أبي يوسف لإشارة غابرة (ص ٢٠٠).

الملك عبارات العتاب والتعاطف ، ولكن ابن الأحمر لم تطمئن نفسه ، وعاد السلطان إلى المغرب دون أن تصفو القلوب .

وزاد توجس ابن الأحمر لحوادث مالقة وانحيازها إلى السلطان ، وجال بخاطره أن التفاهم مع ملك قشتالة خير وأبقى . وفي أواخر سنة ٦٧٧هـ استطاع ابن الأحمر أن يستولى أخيرا على مالقة ، وذلك باغراء صاحبها بالنزول عنهما والاستعاضة بالمنكب وشلوبانية . ثم سعى إلى التفاهم مع ملك قشتالة والتحالف معه ، على منع السلطان المنصور من العبور إلى الأندلس . ونزلت القوات القشتالية بالفعل في الجزيرة . وكاتب ابن الأحمر أيضا الأمير يغمراسن ملك المغرب الأوسط ، وخصم السلطان المنصور يسأله العون والتحالف . وعلم المنصور بذلك فأراد العبور تولا إلى الأندلس ، ولكن عاقته حوادث المغرب حيناً . وفي أوائل سنة ٦٧٨هـ بعث ولده الأمير أبا يعقوب إلى الأندلس في أسطول ضخم ، ونشبت بينه وبين أسطول النصارى المربط في بحر الزقاق معركة هائلة ، هزم النصارى على أثرها واستولى المسلمون على سفنهم ، ونزلوا بالجزيرة ، فغادرها النصارى في الحال .

وأراد الأمير أبو يعقوب أن يتبع نصره بعقد الصلح مع ملك قشتالة والتحالف معه على قتال ابن الأحمر ومهاجمة غرناطة ، فأنكر عليه أبوه السلطان ذلك ، ثم زحف جنود المغرب على ثغر ماربلة ، وهي من أملاك ابن الأحمر تريد الاستيلاء عليها ، فامتنعت عليهم . وانتهز القشتاليون تلك الفرصة ، فزحفوا على غرناطة ومعهم بنو أشقيلولة ، فلقبهم ابن الأحمر وردهم على أعقابهم (٦٧٩هـ) . بيد أنه بالرغم من هذا النصر المؤقت أخذ يشعر بدقة موقفه ، وخطورة القوى التي يواجهها سواء من جانب القشتاليين أو من جانب الجيوش المغربية ، التي استدعيت في الأصل لتكون له سنداً وغوثاً ، فانقلبت إلى مناوئته وقتاله . ومن جهة أخرى فقد كان السلطان المنصور يخشى عاقبة هذا التصرف على مصير المسلمين ، وعلى ذلك فقد بعث إلى ابن الأحمر في وجوب عقد المودة والتفاهم ، فلقى لديه مثل رغبته ، وبادر السلطان إلى عقد أوامر الصلح والتحالف بين المسلمين ، على أن ينزل ابن الأحمر عن مالقة للسلطان المنصور لتكون له قاعدة للعبور والغزو . وصفا الجو

على أثر ذلك بين ابن الأحمر والمغاربة ، وشغل السلطان المنصور حيناً بحاربة الخوارج عليه .

* * *

ولم يمض قليل على ذلك حتى عادت شئون الأندلس تستغرق اهتمام المنصور ، وكانت شئون الأندلس قد غدت في الواقع عنصراً بارزاً في سياسة بنى مرين ، وكانت مملكة غرناطة حتى في ذلك الوقت الذي انكشفت فيه الدولة الإسلامية في الأندلس ، تلعب دورها في شئون اسبانيا النصرانية كلما اضطرت فيها الحوادث . ولما سطع نجم الدولة المرينية فيما وراء البحر ، اتجه إليها اهتمام النصارى ، وكانت كلما وقعت في قشتالة حرب أهلية لحأ هذا الفريق أو ذاك إلى مؤازرة غرناطة أو بنى مرين ، على غرار ما كان يحدث في الماضي . ومن ذلك ما حدث في سنة ٦٦٩هـ (١٢٧٠م) من خروج الإنفانت فيليب على أخيه الفونسو العاشر مع جماعة من النبلاء والتجائهم إلى السلطان المنصور في طلب العون واستجابته لدعوتهم ، واتخاذهم غرناطة قاعدية لجهودهم . وكادت تنشب من جراء ذلك حرب بين المسلمين والنصارى ، لولا تدخل فيولا ملكة قشتالة ، واسترضائها للخوارج بمختلف المنح . ولا بد لنا أن نذكر هنا أن الفونسو العاشر ملك قشتالة هذا هو الفونسو العالم أو الحكيم El Sabio وكانت له صلوات وثيقة بعلماء الأندلس ، ومنهم تلقى الكثير وتأثر بمناهجهم في التفكير والدرس . وقد وضع الفونسو جداوله الفلكية الشهيرة المسماة بالجدول « الألفونسية » على يد جماعة من العلماء المسلمين واليهود والنصارى ، كما وضع تاريخاً لاسبانيا عنوانه Cronica general de Espagna « تاريخ اسبانيا العام » وقد اعتمد فيه على مصادر عربية كثيرة . ومع أنه لا يخلو من كثير من الأساطير والروايات المغرقة ، فإنه يعتبر من أهم مصادر التاريخ الإسباني في العصور الوسطى . وكان الفونسو العاشر يحب جيرانه المسلمين ، ويقدر علمهم ورفيع ثقافتهم ، وكان هذا من أسباب السخط عليه في مملكته . وكان من جراء اشتغاله بالعلوم والآداب في عصر لانهض الممالك فيه إلا بالحرب والسياسة ، إن اضطرت شئون المملكة . وفي سنة ١٢٨٢م (أوائل ٦٨١هـ) ثار عليه ولده سانشو وآزره معظم النبلاء ، واستطاع أن ينتزع العرش لنفسه . فأتجه أبوه الملك المخلوع إلى السلطان أبي يوسف

المنصور ، وأرسل إليه بالمغرب وفدا من الأبحار يستمد منه الغوث والعون ضمد ولده . فاستجاب السلطان لصريخه ، وعبر البحر في قواته إلى الأندلس في ربيع الثاني سنة ٦٨١ هـ ، وهرع الفونسو إلى لقائه بمحلته بالجزيرة على مقربة من رندة مستجيرا به ، ملتصقا لنصرته ، وقدم إليه تاجه رهنا لمعونته . فأمداه السلطان بمائة ألف من الذهب ليستعين بها على حشد الحند . قال ابن خلدون وقد رأى هذا التاج ببلاط بنى مريم أيام أن كان في خدمتهم « وبقى بيدهم فخرا للأعقاب لحسنا العهد » (١) . وغزا أبو يوسف أراضى قشتالة وحاصر قرطبة ، ثم زحف على طليطلة ، وعاث في نواحيها ، ووصل في زحفه إلى حصن مجريط « مدريد » . وتحاشى ابن الأحمر في البداية لقاء السلطان لفتور العلائق بينهما ، ولتوجسه من مخالفته لألفونسو ورأى من جانبه أن يتفاهم مع سانشو ملك قشتالة الجديد ، وزحف على المنكب وهى من الثغور التى تحتلها قوات المغرب ، فغضب السلطان وارتد لقتاله . وكادت تنشب بين الملكين المسلمين فتنة مستطيرة ، لولا أن خشي ابن الأحمر العاقبة ، وعاد إلى التفاهم مع المنصور ، وصفا الجو بينهما نوعا . وعاث المنصور في أراضى قشتالة مرة أخرى ، وغص جيشه بالسبي والغنائم ، ثم عاد إلى المغرب بعد أن ولى على الجزيرة حاكما من قبله .

واستمرت الحرب الأهلية أثناء ذلك في قشتالة بين الإبن والأب ، ولبث هذا النضال الدموى زهاء عامين ، حتى توفى الفونسو العاشر طريدا مهزوما في سنة ١٢٨٤م (٦٨٣ هـ) ، فكان لوفاته وقع عميق في غرناطة والمغرب ، وأرسل كل من الملكين المسامين عزاءه في الملك العالم المنكود إلى بلاط قشتالة . وكان موقف المملكتين الإسلاميتين غريبا ازاء حوادث قشتالة ، إذ كان ملك المغرب يؤازر الملك المجاوع ، وكان ملك غرناطة بالرغم من عطفه على الفونسو العاشر يؤازر ولده الخارج عليه . والحقيقة ان ابن الأحمر كان يشهد تقاطر الجيوش البربرية إلى الجزيرة الخضراء بعين الخزع ويتوجس سرا من وجودهم بها ، وقد كانوا يحتلون معاقها وثغورها ، ويظاهرون الحوارج عليه في مالقة والمنكب وغيرهما من القواعد الجنوبية ، وكان يتوقع أسوأ العواقب من تدخل ملك المغرب في شئون الأندلس على هذا

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٠٥ ، والاحامة ج ١ ص ٣٧٧ ، والملحة البدرية ص ٤٣ ، وأزهار الرياض

النحو ، وكان مثل المرابطين ومأساة الطوائف عبرة خالدة ، تساوره دائما وتذكى جزعه . على أن موت القونسو العاشر وانتهاء الحرب الأهلية في قشتالة ، خفف من هذا التوتر بين المملكتين ، وكان ابن الأحمر يذكر في الوقت نفسه غدر ملك قشتالة وخطر النصارى على مملكته ، فيجئح بعد التأمل إلى إيثار التفاهم مع ملك المسلمين .

وفي صفر سنة ٦٧٤هـ عبر السلطان المنصور إلى الأندلس للمرة الرابعة ، وزحف على أراضي النصارى ، وغزا مدينة شريش ، وسار ولده أبو يعقوب إلى أحواز إشبيلية فعات فيها . ثم زحف المنصور على قرمونة والوادي الكبير ، وخرّب جنده بسائط إشبيلية ولبلة وإستجة والفرنيرة . وسر ابن الأحمر لاجتياح أراضي قشتالة على هذا النحو ، وبعث إلى السلطان مددا من غرناطة ، وجاءت الأساطيل المغربية فطاردت أساطيل العدو في بحر الزقاق واحتلته . ورأى سانشو ملك قشتالة تفاقم الأمر وعقم المقاومة ، فجئح إلى طلب السلم ، وبعث إلى السلطان وفدا من الأبحار بطلب الصلح ويفوض السلطان في اشتراط ما يراه ، فاستجاب السلطان لرغبتهم ، واشترط عليهم مسالمة المسلمين كافة ، وأن يمتنع النصارى عن كل اعتداء على الأندلس وعلى أراضي المسلمين ومرافقتهم ، وأن ترفع الضريبة عن التجار المسلمين بدار الحرب (بلاد الاعداء) ، وإن تلبذ قشتالة سياسة الدس بين الأمراء المسلمين ، فقبل النصارى جميع الشروط المطلوبة ، وتعهدوا بتنفيذها . وقدم سانشو بنفسه إلى معسكر السلطان فاستقبله المنصور بحفاوة ، وقدم إليه طائفة من الهدايا ، وتعهد سانشو بتحقيق شروط الصلح كاملة . وسأله السلطان أن يرسل إليه قدرا من الكتب العربية التي استولى عليها النصارى من القواعد الأندلسية ، فأرسل إليه « ثلاثة عشر حملا » وأرسلها السلطان إلى فاس ، فكانت نواة المكتبة السلطانية ، وكان من آثار التفاهم بين ابن الأحمر والمنصور ، ان ترك المنصور ببلاط غرناطة بعض قرابته من مشاهير الغزاة ، وعليهم رئيس من بني العلاء أقارب بني مرين يسمى شيخ الغزاة ، وتولى بنو العلاء قيادة الجيوش الأندلسية عصرا ، وكانت لهم في ميدان الحرب والجهاد مواقف مشكورة (١) .

(١) فتح الطيب ج ٢ ص ٥٣٩ .

وقفل السلطان المنصور راجعاً إلى الجزيرة ليستجم ثم يعود إلى المغرب ، ولكن لم تمض أشهر قلائل حتى أدركه المرض ، وتوفي بالجزيرة في المحرم سنة ٦٨٥ هـ (مارس سنة ١٢٨٥ م) ، بعد حياة حافلة بصنوف الجهاد سواء بالمغرب أو الأندلس .

* * *

فخلفه على عرش المغرب ولده الأمير أبو يعقوب ، وكان مثل أبيه معنياً بشئون الأندلس متمرساً فيها . واستمرت علائق بلاط غرناطة وبنى مرين أعواماً أخرى على حالها من المودة والصفاء ، وزادت توطداً حينما قبل سلطان المغرب ، أن ينزل لابن الأحمر طوعاً عن وادي آش . وذلك أن محمداً الفقيه كان قد عين صهره أبا اسحاق ابن أبي الحسن بن اشقيلولة حاكماً على قمارش ووادي آش ، فلما توفي أبو اسحاق سنة ٦٨٢ هـ استرد ابن الأحمر قمارش ، وخرج عليه أبو الحسن ولد أبي اسحاق في وادي آش وتحالف أولاً مع ملك قشتالة ، فلما عقد السلم بين المسلمين والنصارى ، أعلن أبو الحسن انضواءه تحت لواء ملك المغرب ، وأغضى ابن الأحمر حيناً عن تصرفه . فلما اتصلت وشائج المودة من جديد بينه وبين السلطان أبي يعقوب ، سأله التنازل عن وادي آش فأجابه إلى سؤله ، ورحل عنها الثائر أبو الحسن إلى المغرب ملتجئاً إلى بلاط فاس ، وبذا استطاع ابن الأحمر أن يبسط سلطانه على الأندلس كلها (١) .

وفي أوائل سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) أغار سانشو ملك قشتالة على الثغور الأندلسية ناكثاً لعهد ، فأرسل السلطان أبو يعقوب إلى قائده على الثغور أن يغزو شريش وأرض النصارى ، فزحف عليها وعاث فيها . وأعلن أبو يعقوب الجهاد ، وتقاطرت بعوث المجاهدين إلى الأندلس ، فبعث سانشو أسطوله إلى بحر الزقاق ليحول دون وصول الأمداد ، فبعث السلطان أسطوله لمهاجمة السفن القشتالية ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة بحرية هزم فيها المسلمون (اغسطس سنة ١٢٩١ م) . ولكن هذه الهزيمة لم تثن ملك المغرب عن عزمه ، فبعث أسطولا آخر لمقاتلة النصارى ، وانسحب النصارى هذه المرة . وعبر السلطان أبو يعقوب إلى الأندلس في قواته في رمضان سنة ٦٩٠ هـ ، واقتحم أرض النصارى ، وغزا شريش ووصل

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢١٢ و ٢١٣ .

في زحفه حتى أحواز إشبيلية وعاث فيها ، ثم عاد إلى الجزيرة ، وارتد إلى المغرب في أوائل سنة ٦٩١ هـ .

وتوجس ملك قشتالة من مشاريع سلطان المغرب فسعى إلى مخالفة ابن الأحمر وحذره من نيات المغاربة واستيلائهم على الثغور الأندلسية ولاسيما ثغر طريف مدخل الجزيرة ، وتفاهم الملكان على انتزاع هذا الثغر من المغاربة ، واشترط ابن الأحمر أن تسلم إليه طريف عقب انتزاعها . وسير سانشو أسطوله إلى بحر الزقاق ليحاصر طريف من ناحية البحر ، وليحول دون وصول الأمداد إليها . وعسكر ابن الأحمر في قواته بمالقة على مقربة منها يعاون النصارى بالأمداد والمؤن ، وصمدت حامية طريف أربعة أشهر ، ولكنها اضطرت في النهاية إلى التسليم للنصارى . وهنا طالب ابن الأحمر سانشو بتسليمها فأبى وأعرض عنه ، مع أنه نزل له مقابلها عن عدد من الحصون الهامة ؛ فأدرك ملك غرناطة عندئذ خطأه في الركون إلى وعود ملك قشتالة وفي مغاضبة ملك المغرب حليفه الطبيعي ، وسنده المخلص في رد عدوان النصارى .

وعاد ابن الأحمر يخطب ود بني مرين مرة أخرى ، وأوفد ابن عمه الرئيس أباسعيد فرج بن اسماعيل ووزيره أبا عزيز الداني على رأس وفد من كبراء الأندلس ، إلى السلطان أبي يعقوب في طلب المودة ، وتجديد العهد ، والاعتذار عن مسلكه في شأن طريف ؛ فأكرم السلطان وفادتهم وأجابهم إلى طلب الصلح . ولما عاد الوفد إلى غرناطة سر ابن الأحمر من كرم السلطان ونبل مسلكه ، واعتزم الرحلة للقاءه بنفسه ؛ وتأكيد المودة والاعتذار ، فعبر البحر إلى العدو في أواخر سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) ومعه طائفة من الهدايا الفخمة ، ونزل بطنجة حيث استقبله بعض أبناء السلطان ، ثم جاء السلطان بنفسه إلى طنجة وتلقاه بمنتهى الإكرام والحفاوة ، ونزل له ابن الأحمر عن الجزيرة ورندة وأراضي الغربية وعدة من الحصون كانت من قبل في طاعة ملك المغرب . وعاد ابن الأحمر مغتبطاً بنجاح مهمته ، وأرسل السلطان معه حملة لغزو طريف بقيادة وزيره عمر بن السعود . فحاصرتها حيناً ولكنها لم تظفر بافتتاحها (١) . واستمر محمد بن محمد بن الأحمر أو محمد الفقيه في حكم غرناطة أعواماً أخرى ، وهو ثابت العهد مقيم على صداقة بني مرين . ثم توفي في شعبان سنة ٧٠١ هـ (مايو

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢١٧ .

سنة ١٣٠٢ م) بعد أن حكم أكثر من ثلاثين عاماً ، وقد زاد ملك بني الأحمر في عهده توطداً واستقراراً ، بالرغم مما توالى فيه من الأحداث والخطوب. وكان وزيره في أواخر عهده الكاتب والشاعر الكبير أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم اللخمي وهو من مشايخ رندة ، وكان من قبل من كتابه في ديوان الإنشاء، وكان رجلاً وافر العزم قوى الشكيمة ، ولقب بذي الوزرتين لجمعه بين الكتابة والوزارة ، وكان لحزمه وقوة نفسه أكبر أثر في استقرار الأمور في هذا العهد .

— ٢ —

وخلف محمد الفقيه ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالملخوع ، وكان ضريباً ، وكان ذا نباهة وعزم ، عالماً شاعراً يوثر مجالس العلماء والشعراء ، ويصغي إليهم ويجزل مسالمتهم ، محباً للإصلاح والإنشاء . وكان بين منشأته المسجد الأعظم بالحمراء ، فهو الذي أمر ببنائه على أبداع طراز ، وزوده بالعمد والنقوش والثريات الفخمة ؛ ولكنه لم يحسن تدبير شئون الملك والسياسة ، وغلب عليه كاتبه ووزيره ووزير أبيه من قبل أبو عبد الله محمد بن الحكيم اللخمي ، فاستبد بالأمر دونه وحجر عليه ، فاضطربت الأمور ، وأخذت عوامل الانتقاض تجتمع وتبدو في الأفق .

وفي عهده القصير اضطربت علائق مملكة غرناطة وبني مرين مرة أخرى . والواقع أنه حاول في بداية عهده ، أن يعمل على إحكام المودة بينه وبين بني مرين ، فأرسل وزير أبيه أبا عزيز الداني ووزيره ابن الحكيم إلى سلطان المغرب ليجددا عهد المودة والصداقة ، فوفدا عليه وهو بمعسكره محاصراً لتلمسان ، فأكرم وفادتهما وطلب إليهما إمداده ببعض جنود الأندلس الخبراء في منازلة الحصون فأرسلت إليه قوة منهم أدت مهمتها أحسن أداء . ولاح أن أواصر المودة أضحت أشد ما يكون توثقاً بين الفريقين ، ولكن ابن الأحمر عرض له فجأة أن يعدل عن محالفة سلطان المغرب ، وأن يعود إلى محالفة ملك قشتالة ، فغضب السلطان أبو يعقوب لذلك ، ورد جنود الأندلس (٥٧٠٣ هـ) . وبدأ ابن الأحمر أعمال العدوان ، بأن أوعز إلى عمه وصهره الرئيس أبي سعيد فرج بن اسماعيل صاحب مالقة ، أن يحرض أهل سبتة في الضفة الأخرى من البحر على خلع طاعة السلطان ، واستعد ابن الأحمر في الوقت نفسه لمحاربة السلطان ، إذا عن له أن يعبر إلى الأندلس ، وجهز الرئيس أبو سعيد حملة بحرية في ميناء مالقة

بحجة مدافعة النصارى ، ثم سيرها فجأة إلى سبتة ، وذلك في شوال سنة ٧٠٥ هـ (١٣٠٦ م) . وكانت الحملة بقيادة عثمان بن أبي العلاء المريني ، فاستولت على سبتة ، وجاء الرئيس أبو سعيد فاستبد بأمرها ، وأعلن انصواءها تحت لواء ابن الأحمر ، وقبض على ابن العزفي حاكمها من قبل السلطان وآله ، وأرسل إلى غرناطة . ووقف السلطان أبو يعقوب على هذه الحوادث وهو تحت أسوار تلمسان ، فوجد له لذلك الغدر ، وبعث حملة بقيادة ولده أبي سالم إلى سبتة فحاصرها حيناً ، ولكنه أخفق في الاستيلاء عليها وارتد أدراجه ، وخرج في إثره عثمان بن أبي العلاء في جند الأندلس ، وعات في أحواز سبتة وما جاورها (سنة ٧٠٦ هـ) .

وكان لتطور الحوادث على هذا النحو أسوأ وقع في نفس السلطان أبي يعقوب ؛ فاعتزم أن يسير بنفسه إلى استرداد سبتة ، ولكن حدث بينما كان يجده في الأهبة أن اغتاله كبير الحصيان ، في مؤامرة دبرها الحصيان للتخلص منه خوفاً من أن يبطش بهم ، فتوفي قتيلاً في ذي القعدة سنة ٧٠٦ هـ (أبريل سنة ١٣٠٧ م) ؛ ونشبت عقب مصرع السلطان حرب أهلية حول العرش بين ولديه أبي ثابت وأبي سالم ، هزم فيها أبو سالم وقتل ، واستقر أبو ثابت على العرش .

وفي ذلك الحين كان عثمان بن أبي العلاء المريني يتوغل بجنده في شمال المغرب ، وكان هذا الجندى الحزى يتجه بأطماعه نحو عرش المغرب ، ويعتمد في تحقيق مشروعه على أنه سليل بني مرين . ولما توغل بجنده جنوباً ، دعا لنفسه بالملك واستولى على بعض الحصون ، وأيدته بعض القبائل ، وهزم عساكر السلطان أبي يعقوب حينما تصدت لوقفه ، وانتهز فرصة مصرع السلطان ونشوب الحرب الأهلية بين ولديه ، فزاد إقداماً وتوغلاً واستفحل أمره ، ولاح الخطر يهدد ملك بني مرين .

وما كاد السلطان أبو ثابت يستقر في عرش أبيه ، حتى اعتزم أمره للقضاء على تلك الحركة الخطيرة ، واسترداد سبتة ، فسار إلى الشمال على رأس جيش ضخم في شهر ذي الحجة سنة ٧٠٧ هـ ؛ ولما شعر عثمان بن أبي العلاء بوفرة قوته وأهبتته ، بادر بالفرار مع جنده خشية لقائه ، وزحف السلطان على الحصون الخارجة عليه فأخنن فيها واستولى عليها ، ثم سار إلى طنجة ؛ وامتنع عثمان بن أبي العلاء بقواته في سبتة ، فسار إليها السلطان وضرب حولها الحصار الصارم ، وأمر ببناء بلدة تيطاوين

(تيطوان) لنزول عسكره ، ولكنه مرض أثناء ذلك وتوفي في صفر سنة ٧٠٨ هـ (يولييه سنة ١٣٠٨ م) (١) .

فخلفه في الملك أخوه السلطان سليمان أبو الربيع ، وارتد بالجيوش إلى فاس تاركا سبته لمصيرها . فخرج في أثره عثمان بن أبي العلاء في قواته ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها عثمان ، وقتل من الأندلسيين عدد جم ، وخشى عثمان العاقبة فعاد مع آله إلى الأندلس ولحق بغرناطة ، وتابع السلطان أبو الربيع سيره إلى فاس واستقام له الأمر .

ولم تمض على ذلك أشهر قلائل حتى وقعت بالأندلس حوادث هامة . ذلك أن عوامل الانتفاض التي لبثت بضعة أعوام تعمل عملها في ظل محمد المخلوع ، تمخضت في النهاية عن نشوب الثورة . وكان مدبرها ومثير ضرامها أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد الفقيه ، ومن ورائه رهط من كبار الدولة ، سئموا نظام الطغيان الذي فرضه محمد المخلوع ووزيره ابن الحكيم . واضطربت الثورة في يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨ هـ (أوائل سنة ١٣٠٩ م) . ووثب الخوارج بالوزير ابن الحكيم فقتلوه ، واعتقلوا السلطان محمد وأرغموه على التنازل عن العرش ، وترجع أخوه نصر مكانه في الملك ، ونفى السلطان المخلوع إلى حصن المنكب ، حيث قضى خمسة أعوام في أصفاد الأسر ، ثم أعيد بعد ذلك مريضا إلى غرناطة حيث توفي في سنة ٧١٣ هـ (٢) .

ووقف سلطان المغرب على حوادث الأندلس ، وبلغه أن أهل سبته قد سئموا نير الأندلسيين ، فبعث إليها حملة بقيادة تاشفين بن يعقوب ، فلما وصلت إليها ثار أهل البلد ، وطردها منها جند ابن الأحمر وعماله ، ودخلتها في الحال جند المغرب واستولوا عليها ، وذلك في شهر صفر سنة ٧٠٩ هـ . واغتبط السلطان لانتهاء هذه المغامرة التي شغلت بني مرين بضعة أعوام .

وكان سلطان غرناطة الحديد يوم جلوسه قتي في الثالثة والعشرين من عمره ، وكان ولوعا بالأبهة والمظاهر الملوكية . وكان في الوقت نفسه أدبيا عالما بارعا في الرياضة والفلك ، وقد وضع جداول فلكية قيمة . ولكنه لم يحسن السيرة ، ولم

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٣٧ .

(٢) الأماطة ج ١ ص ٣٥٩ — ٣٦٤ ؛ واللحة البدرية ص ٤٨ — ٥٤ .

يوفق في تدبير الأمور . وسرعان ما ينشط عليه الشعب كما ينشط على أخيه من قبل . فاضطربت الأحوال ، وتوالى الأزمات ، وكانت حوادث سبته نديرا بتفانهم التوتر بين بلاط غرناطة وبلاط فاس . ومن جهة أخرى فقد ساءت العلاقات بين غرناطة وقشتالة ، وانتهز القشتاليون كعادتهم فرصة اضطراب الأحوال في غرناطة ، فغزوا أرض المسلمين في أوائل سنة ٥٧٠٩ هـ ، ووضع فرديناند الرابع ملك قشتالة مشروعا جريئا للاستيلاء على جبل طارق . وكانت الأمداد المغربية قد انقطعت منذ استولى النصارى على طريف ، وشغل بنو مرين بالحوادث والثورات الداخلية ، وساءت علاقتهم ببني الأحمر . ورأى فرديناند الرابع أن الفرصة سانحة ليضرب ضربته المفاجئة ، فغزا الجزيرة الخضراء ، وبعث أسطوله لحصار جبل طارق من البحر ، وأوعز في الوقت نفسه إلى چايم (چاميس) ملك أراجون (رغون) أن يحاصر ثغر ألمرية لكي يشغل قوات الأندلس . وبدأ حصار ألمرية وجبل طارق في وقت واحد في أوائل سنة ٥٧٠٩ هـ ، وبذل النصارى للاستيلاء على ألمرية جهودا فادحة ، ونصبوا على أسوارها الآلات الضخمة ، وحفروا في أسفل السور نفقا واسعا لدخولها ، فلقبهم المسلمون تحت الأرض وردوهم بخسارة فادحة ؛ ونشبت على مقربة من ألمرية معركة بين جند الأندلس بقيادة عثمان بن أبي العلاء وجند أراجون ، فهزم النصارى واضطروا إلى رفع الحصار ، ونجحت ألمرية من خطر السقوط (١) . ولكن ثغر جبل طارق كان أسوأ طالعا . فقد شدد النصارى حوله الحصار من البر والبحر ، وبالرغم من هزيمتهم أمام المسلمين على مقربة من جبل طارق فقد لبثوا على حصاره بضعة أشهر حتى أضنى الحصار المسلمين وأرغموا على التسليم . وسقط الثغر المنيع في يد النصارى في أواخر سنة ٥٧٠٩ هـ (مارس سنة ١٣١٠ م) فكان لسقوطه وقع عميق في الأندلس والمغرب معا ؛ فقد كان باب الأندلس من الجنوب ، وكان صلة الوصل المباشر بين المملكتين الإسلاميتين .

وأدرك ابن الأحمر على أثر هذه النكبة فداحة الخطأ الذي ارتكبه بمجافاة بني مرين ، فبادر بإرسال رساله إلى السلطان أبي الربيع يبدى أسفه على ما سلف ؛ ويسأله الصنح والصلح ، فأجابه السلطان إلى طلبه ، ونزل ابن الأحمر للسلطان

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٤٠ .

عن الجزيرة ورنادة وحصونها ترضية له وترغيباً في الجهاد ، واقترن بأخت السلطان توثيقاً لوشائج المودة ، وأرسل السلطان إليه الممدد والأموال ، وعادت علائق التفاهم والتحالف بين غرناطة وفاس إلى سابق عهدها (١) .

على أن هذا التحسن في علائق المملكتين الإسلاميتين ، لم يثن النصارى عن مشاريعهم تجاه غرناطة . ذلك أن الجيوش المغربية لم تعد تعبر إلى الجزيرة بكثرة . وكانت أحوال المغرب تعوق بني مرين عن استئناف الجهاد في الأندلس على نطاق واسع ، وكانت أحوال غرناطة من جهة أخرى تشجع النصارى على التحرش بها والإغارة على أراضيها . ولما رأى السلطان نصر تفاقم الأمور واشتداد بأس النصارى ، لم ير وسيلة لاجتناب الخطر الذي يهدده سوى مصانعة فرديناند الرابع ملك قشتالة والتعهد له بأداء الجزية . وكان ذلك مما زاد في سوء سيرته وفي سخط الشعب عليه . ولم تلبث أعراض الثورة أن ظهرت في الجنوب حيث أعلن الرئيس أبو سعيد فرج بن اسماعيل النصرى صاحب مالقة وابن عم أبي السلطان ، الخروج والعصيان . ورشح الخوارج للملك مكان نصر ، أبا الوليد اسماعيل وهو حفيد لاسماعيل أخى محمد بن الأخرم رأس الأسرة النصرية . ولم يمض سوى قليل حتى استطاع أبو سعيد وشيعته التغلب على المرية وبلش وغيرهما من القواعد الجنوبية . وفي أوائل سنة ٥٧١٢ هـ (١٣١٣ م) سار في قواته إلى غرناطة ، وهرع السلطان نصر إلى لقائه فكانت الهزيمة على نصر ، فاجأ إلى غرناطة ولكنه لم يلبث أن أذعن واضطر إلى التنازل عن العرش ، وسار بأهله إلى وادي آش وقولى حكمها حتى توفي سنة ٥٧٢٢ هـ (١٣٢٢ م) (١) .

(١) الاطاحة ج ١ ص ٢٢٧ ؛ واللمحة البدرية ص ٥٧ — ٦٣ .

الفصل السابع

مملكة غرناطة في النصف الأول من القرن الثامن الهجرى

وذروة الصراع بين بنى مرين واسبانيا النصرانية

ولاية السلطان أبى الوليد اسماعيل . زحف القشتاليين على غرناطة . هزيمتهم ومقتل أمرائهم . سوء الأحوال فى قشتالة . غزوات المسلمين فى أراضى النصارى . مقتل السلطان اسماعيل وخلالله . ولاية ولده أبى عبد الله محمد . بطشه بوزيره ابن المحروق . الخلاف بينه وبين شيوخ الغزاة . الحاجب أبو النعيم رضوان . استنجد ملك غرناطة بملك المغرب . أبو الحسن يرسل الامداد مع ولده . غزو الأندلسيين للجزيرة الخضراء . حصارهم لجبل طارق واسترداده من النصارى . المؤامرة على السلطان ومصرعه . السلطان أبو الحجاج يوسف . نكبته لبنى العلاء . الحاجب رضوان واستئثاره بالسلطة . نفيه وعوده الى الوزارة . الوزير ابن الجياب . بداية ظهور ابن الخطيب . تحرش القشتاليين بالمسلمين . قدوم الامداد من المغرب . هزيمة المغاربة ومقتل قائدهم . عبور السلطان أبى الحسن الى الأندلس . موقعة سالادو وهزيمة المسلمين . سقوط طريف والجزيرة الخضراء فى يد النصارى . سير السلطان أبى الحسن للمرة الثانية . هزيمته فى البر والبحر . تبادل المكاتبه والسفارة بين أبى الحسن وسلطان مصر . الوباء الكبير . عود القشتاليين الى الغزو . حصارهم لجبل طارق . تفشى الوباء بين النصارى ومصرع ملك قشتالة . نجاة جبل طارق . أقوال ابن الخطيب . وصف ابن بطوطة لحوادث الأندلس وأحوالها . مصرع السلطان أبى الحجاج يوسف . وصف ابن الخطيب للحدث . خلال يوسف . استعراض للعلائق بين بنى الأحمر وبنى مرين .

جلس السلطان أبو الوليد اسماعيل على عرش غرناطة فى شوال سنة ٧١٣هـ

(١٣١٤م) وامتاز عصره بتوطد الملك ، واستقرار الأمور ، وحياء عهد الجهاد . وفى أوائل عهده غزا القشتاليون كعادتهم بسائط غرناطة واستولوا على عدة من القواعد والحصون ، وهزموا المسلمين هزيمة شديدة فى وادى فرتونة (٧١٦هـ) .

ولما رأى القشتاليون نجاح غزوتهم اعتزموا منازلة الجزيرة الخضراء والاستيلاء عليها ، ليحولوا دون وصول الأمداد إلى المسلمين من عدوة المغرب . ولكن السلطان اسماعيل بادر إلى تحصينها وجهاز الأساطيل لحمايتها من البحر ، فعدك القشتاليون عن مشروعهم ، وعولوا على مهاجمة الحاضرة الإسلامية ذاتها . وبادر ابن الأحمر بطلب الغوث والأمداد من السلطان أبي سعيد سلطان المغرب ، فنكل عن معاونته ، وطالب بتسليم عثمان بن أبي العلاء لما كان منه في حق بني مرين ، فأبى ابن الأحمر خشية العواقب ؛ وزحف القشتاليون على غرناطة بجيش ضخم ، يقوده الدون بيدرو (دون بطره) والدون خوان الوصيان على الفونسو الحادى عشر ملك قشتالة ، ومعهما عدة من الأمراء القشتاليين ، وفرقة من المتطوعة الإنجليز بقيادة أمير انجليزى ، فبادر المسلمون إلى لقاءهم فى هضبة إلبيرة على مقربة من غرناطة . وكان الجيش الغرناطى لايجاوز ستة أو سبعة آلاف جندى منهم نحو ألف وخمسمائة فارس ، ولكنهم صفوة المقاتلة المسلمين ، وكان قائده شيخ الغزاة أبو سعيد عثمان ابن أبي العلاء ، جنديا جريئا وافر العزم والبسالة ، فلم ترعه كثرة الجيش المهاجم ، وعول فى الحال على لقاءه فى معركة حاسمة . وفى ٢٠ من ربيع الثانى سنة ٧١٨ هـ (مايو سنة ١٣١٨ م) التى فرسان الأندلس بطلائع النصارى وردوهم بخسارة فادحة . ثم زحف أبو سعيد فى نخبة من جنده ، ونشبت بين الفريقين موقعة شديدة ، كانت الدائرة فيها على القشتاليين ، فزقوا شر ممزق ، وقتل منهم عدد جم ، بينهم دون بيدرو ودون خوان ، ورهط كبير من الأمراء والنبلاء والأجبار ، وغرق منهم عند الفرار فى نهر شنيل عدة كبيرة ، وأسر منهم بضعة آلاف ، واستمر القتل والأسر فيهم ثلاثة أيام . وخرج أهل غرناطة فرحين مستبشرين ، يجمعون الأسلاب والأسرى ، وظفر المسلمون بغنائم عظيمة ، منها مقادير كبيرة من الذهب والفضة . وكان على العموم نصرا مشهودا أعاد ذكرى الجهاد الحميد . وكان معظم الفضل فى إحرازه يرجع إلى الجند المغاربة وإلى شيوخهم بنى العلاء الذين تزعموا الحيوش الأندلسية ، وتولوا قيادتها فى تلك الفترة حسبما أسلفنا . ويعلل ابن خلدون ظهور القادة والجند المغاربة فى ميدان الجهاد بقرب عهدهم بالتقشف والبدواة .

ووضع المسلمون جثة الدون بيدرو في تابوت من ذهب على سور الحمراء تنويها بالنصر ، وتخليداً للذكرى الموقعة (١) .

والواقع أن مملكة قشتالة كانت في أوائل القرن الرابع عشر في حالة سيئة ، وقد نفذت مواردها من الرجال والأموال ، بسبب الحروب والثورات المتواصلة ، والمرض والقحط ؛ وكان إسراف البلاط وبنخ الخلائل ، واختلاس الموظفين ، ومطالب رجال الدين ، وجشع الأشراف ، تستنفد الأموال العامة ؛ وكانت الإدارة المالية في يد اليهود ورجال الكنيسة وكلاهما يناوىء الآخر ، ويعمل على احباط مساعيه ؛ وكانت الوصايات المتعاقبة ، وما تعتمد إليه من اغتصاب الأموال ، وسوء استعمال السلطة ، وفساد القضاء ، وتطاول الخلائل الملكية ، وسحق الحقوق العامة والخاصة ، وتفشي الجريمة ، تثير غضب الشعب وسخطه ؛ وكان اللون الصليبي للحروب الإسبانية في ذلك العصر يوطد نفوذ جماعات الفرسان الدينية العديدة وهي التي كانت في الواقع توجه مصاير الحرب والسياسة ، بيد أنها كانت تخفي تحت ستار الدين رذائل كثيرة كالفجور والجشع والارتشاء وغيرها (٢) .

وعلى أثر موقعة إلبيرة تعاقبت غزوات المسلمين في أراضي النصارى وعادت الدولة الإسلامية الفتية تجوز عهداً من القوة بعد أن لاح أنها شارفت طور الفناء .
في سنة ٥٧٢٤هـ (١٣٢٤م) زحف السلطان اسماعيل على مدينة بياسة الحصينة وحاصرها بشدة ، وأطلق المسلمون عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع حتى سلمت . وفي رجب من العام التالي (٥٧٢٥هـ) سار اسماعيل إلى مرتوس (مرتنس) واستولى عليها عنوة ، وكانت أعظم غزواته ، وامتألت أيدي المسلمين بالسبي والغنائم . ثم عاد السلطان إلى غرناطة مكلاً بغار النصر . بيد أنه لم تمض على عودته ثلاثة أيام حتى قتل بيباب قصره غيلة ، وكان قاتله ابن عمه محمد بن اسماعيل صاحب الجزيرة ، وقد حقد عليه لأنه انتزع منه جارية رائعة الحسن ظفر بها في موقعة مرتوس ، وبعث بها إلى حريمه بالقصر . ولما عاتبه محمد رده بجفاء وأذنره

(١) راجع في تفاصيل هذه الموقعة الشهيرة ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٢ ، وج ٧ ص ٢٥٠ ؛ والإحاطة ج ١ ص ٢٣٠ ؛ والقرى في نفع الطيب ج ١ ص ٢١٠

(٢) راجع : Scott : ibid ; V. II. p. 476-78

بمغادرة البلاط ، فتربص به وطعنه بخنجره وهو بين وزرائه وحشمه ، فحمل جريحاً حيث توفى على الأثر ، وكان مصرعه في السادس والعشرين من رجب سنة ٧٢٥هـ (يونيه سنة ١٣٢٥م) .

وكان السلطان اسماعيل يتمتع بخلال باهرة ، وكان يشتد في إخماد البدع وإقامة الحدود . وفي عهده حرمت المسكرات وطورد الفساد الأخلاقي ، وحرم جلوس الفتيات في ولائم الرجال ، وعمول اليهود بشئ من الشدة ، وألزموا أن يتخذوا لهم شعاراً خاصاً بهم ، هو عبارة عن العمائم الصفراء (١) .

فخلفه ولده أبو عبد الله محمد وهو فقي يافع لم يجاوز الحادية عشرة من عمره ، وكانت أمه نصرانية تدعى علوة ، وأخذ له البيعة وزير أبيه أبو الحسن بن مسعود ، وقام بكفالته بضعة أشهر حتى توفى ؛ ثم خلفه في الوزارة وكيل أبيه محمد بن أحمد ابن المحروق ، فاستبد بالأمر واستأثر بكل سلطة ؛ فحقد عليه السلطان الفتي وكان رغم حدائمه مقداماً قوى النفس ، ولم يلبث أن بطش بوزيره المتغلب عليه ، فقتل بأمره في المحرم سنة ٧٢٩هـ .

ولأول عهده نشب الخلاف بينه وبين شيوخ الغزاة المغاربة ، وعلى رأسهم عثمان بن أبي العلاء ، وامتنعوا ببعض الثغور الجنوبية ولاسيما ألمرية ، وانضم إليهم عم السلطان ، محمد بن فرج بن اسماعيل ، فقاموا بدعوته ، ونشبت بين الفريقين عدة مواقع محلية ، كان النصر فيها سجالاتاً بينهما . وانتهز القشتاليون كعادتهم تلك الفرصة ، فاثخنوا في الأراضي الإسلامية واستولوا على ثغر وبذه وعدة من الحصون . ولما تفاقم عيث النصارى آثر السلطان التفاهم مع الخوارج عليه ، وعقدت بينهما الهدنة على أن يستقروا بوادي آش باسمه وتحت طاعته . وتولى تدبير الأمور بعد مقتل ابن المحروق ، الحاجب أبو النعيم رضوان النصرى ، فهدأت الفتنة واستقرت الأمور نوعاً . ولكن ابن الأحمر كان يتوجس شراً من اضطراب الأحوال في مملكته ومن تربص النصارى بها ، ورأى أن يتجه بصريحه إلى بني مرين مرة أخرى . وكانت العلائق يومئذ على صفائها بين غرناطة وفاس . وكان بنو مرين حينما شغلوا بشئونهم الداخلية قد تركوا الجزيرة وحصونها لابن الأحمر (سنة ٧١٢هـ) ، فلما

(١) الاطاحة ج ١ ص ٢٢٩ — ٢٣٣ ؛ واللحمة البدرية ص ٧١ — ٧٤ ؛

اشتدت وطأة النصارى على غرناطة ، عاد ابن الأحمر فنزل عن الجزيرة إلى ملك المغرب السلطان أبي سعيد (سنة ٧٢٩هـ) ، لتكون رهينة ومنزلاً للأمداد المرجوة من وراء البحر ؛ ولكن النصارى استولوا على معظم حصونها : وأضحى طريق الحواز ولاسيما بعد ضياع جبل طارق عسيرا مخوفاً بالمخاطر . وعبر ابن الأحمر البحر في أواخر سنة ٧٣٢هـ إلى عدوة المغرب ، وقصد إلى فاس مستنجداً بملك المغرب ، السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن أبي يعقوب المريني ، فاستقبله السلطان بمنتهى الحفاوة ، وشرح له ابن الأحمر ما انتهت إليه شئون الأندلس ، وما ترتب على سقوط جبل طارق من قطع صلة الوصل بين المملكتين ، ورجاه الغوث والعون . وكان السلطان أبو الحسن مشغولاً بالجهاد واستئناف ما تصرم من أسبابه ، فاستجاب لدعوته وبعث معه الأمداد بقيادة ولده أبي مالك لمنازلة جبل طارق وافتتاحها ، وتلاحقت في أثرهم السفن تحمل المدد والعدد والمؤن . وحشد ابن الأحمر قواته ، وزحف على الجزيرة واستولى عليها . وطوق المسلمون جبل طارق من البر والبحر ، ورابط أسطول المغرب في بحر الزقاق ليحول دون وصول الأمداد إلى النصارى ، وهرع ملك قشتالة (الفونسو الحادى عشر) في قوة من الفرسان لإنجاد الحامية المحصورة ، فبادر ابن الأحمر إلى مهاجمة النصارى وهزمهم أمام جبل طارق ، وشدد المسلمون الحصار على الثغر ، وقطعوا كل صلاته من البر والبحر ، فلم تمض بضعة أسابيع حتى ساءت حال الحامية النصرانية ، واضطرت إلى التسليم . وبذلك استعاد المسلمون هذا الثغر المنيع قبل مقدم الجيش القشتالى ، وذلك في أواخر سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٣م) ، وكان النصارى قد استولوا عليه منذ أيام السلطان نصر في سنة ٧٠٩هـ ؛ وكان أكبر الفضل في استرداده راجعاً إلى معاونة السلطان أبي الحسن في البر والبحر . ولما رابط المسلمون والنصارى في الميدان وجها لوجه ، ورأى ملك قشتالة أنه لا أمل في كسب معركة انتهت فعلاً بظفر المسلمين ، آثر الصلح ، وانتهى الأمر بعقد الهدنة بين الملكين (١) . واعترز السلطان محمد بن اسماعيل (ابن الأحمر) العودة بجنده إلى غرناطة ، ولكنه ما كاد يغادر جبل طارق في اليوم التالى عائداً إلى عاصمة ملكه ، حتى اغتاله في الطريق جماعة من المتآمرين بتحريض بني أبي العلاء ؛

(١) الاطاحة ج ١ ص ٣٤٩ — ٣٥٥ ؛ والمحة البدرية ص ٧٧ — ٨٢ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٢٥٥

وراجع : Scott: ibid ; Vol. II. p. 464.66

وكان أولئك القواد المغاربة وعلى رأسهم شيخهم عثمان بن أبي العلاء قد استفحل أمرهم في الدولة وأخذوا ينازعون السلطان في أمر تصرفاته ، وبدأ ابن الأحمر يتبرم بتدخلهم واستبدادهم ، وكان حينها عبر السلطان أبو الحسن قد خاطبه في شأنهم وسبيل الخلاص منهم ، واستراب بنو العلاء منه وتوجسوا شراً فأتمرروا للتخلص منه قبل أن يبطش بهم ، ولحق به المتآمرون حين عوده واغتالوه طعنا بالرماح ، وتركت جثته في العراء حيناً حتى نقلت بعد ذلك إلى مالقة ودفنت بها (١) .

وولى العرش من بعده أخوه أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد ، وهو قتي في السادسة عشرة . وكان من أعظم ملوك بني نصر وأبعدهم همّة وأرفعهم خللاً . وكان عالماً شاعراً يحمي الآداب والفنون ، وهو الذي أضاف إلى قصر الحمراء أعظم منشآت وأروعها . وما كاد يتبوأ العرش حتى عني بتتبع بني العلاء قتلته أخيه ، وتجريدهم من وظائفهم وتمزيق عصبتهم والقبض على شيوخهم ، وكان ذلك في الوقت نفسه تحقيقاً لرغبة السلطان أبي الحسن . ثم نفاهم في السفن إلى تونس وانتهت بذلك رياستهم بالأندلس بعد أن طالت زهاء نصف قرن . ولما نزلوا على سلطان تونس أبي يحيى ، طالب السلطان أبو الحسن بتسليمهم ، فأرسلهم إليه أبو يحيى ولكن مع طلب الشفاعة فيهم ، فعفا عنهم أبو الحسن ، وأكرم مشواهم مدى حين ، ولكنه عاد فقبض عليهم بتهمة التآمر عليه ، وأودعهم ظلام السجن (٢) .

وقام بتسيير الأمور للسلطان أبي الحجاج وزير أخيه الحاجب أبو النعيم رضوان ، وكان هذا الوزير القوي الذي لعب في تاريخ غرناطة دوراً ذا شأن . من أصل نصراني قشتالي أوقطلوني ، وسبي طفلاً في بعض المواقع ، فأخذ إلى الدار السلطانية ، ونشأ في بلاط السلطان أبي الوليد اسماعيل . وظهرت نجابته وصفاته الممتازة ، فعهد إليه بتربية ولده أبي عبد الله محمد . ولما تولى محمد الملك بعد أبيه تولى وزارته الحاجب رضوان ، فأظهر في تدبير الشؤون كفاية ممتازة ، وقاد بعض الغزوات الناجحة إلى أرض النصارى . ولما تولى الملك أخوه يوسف وقع الإجماع

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦٣ و ٢٦٤ .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦٤ .

على اختياره للوزارة ، واستمرت الأمور في عهده وساد الأمن والرخاء ، وأنشأ بغرناطة مدرسة فخمة هي الأولى من نوعها ، وأمر ببناء السور الأعظم حول ربض البيازين ، وأصاح كثيرا من الحصون الداخلية ؛ ولكنه استبد بالأمر واستأثر بكل سلطة كسائر المتغلبين على السلطان . فلما شعر السلطان يوسف باشتداد وطأته ، وكثرت السعيات في حقه نكبه وأمر باعتقاله ونفيه إلى المرية ، وذلك في رجب سنة ٧٤٠ هـ . ولكنه اضطر إلى أن يعيده إلى الوزارة بعد ذلك ببضعة أشهر حينما شعر بالفراغ الذي أحدثته تنحيه عن تدبير الشؤون ، فاستمر في منصبه حتى نهاية عهده (١) .

وكان من بين وزراء السلطان يوسف الكاتب والشاعر الكبير الرئيس أبو الحسن علي بن الحبيب ؛ وقد تقلب في ديوان الإنشاء حتى ظفر برياسته . وكان من زملائه وأعوانه في ديوان الإنشاء عبد الله بن الخطيب والد لسان الدين . ولما توفي عبد الله خلفه في خدمة القصر ولده لسان الدين ، وغدا أميناً لابن الحبيب . فلما توفي ابن الحبيب سنة ٧٤٩ هـ في الوباء الكبير خلفه في الوزارة ، وبرز نجم مجده من ذلك الحين . وفي عهد السلطان يوسف كثرت غزوات النصارى لأراضي المسلمين ، وكان الفونسو الحادي عشر تحدوه نحو المملكة الإسلامية أطماع عظيمة . ولما شعر يوسف باشتداد وطأة القشتاليين وضعف وسائله في الدفاع ، أرسل يستنجد بالسلطان أبي الحسن علي بن عثمان ملك المغرب ، فأرسل الأمداد للمرة الثانية إلى الأندلس مع ولده الأمير أبي مالك ، فاخترق سهول الجزيرة الخضراء معلناً الجهاد . وتوجست اسبانيا النصرانية من مقدم الحيوش المغربية شراً ، واعتزمت أن تواجه الغزاة في قواها المتحدة ، فسار أسطول مشترك من سفن قشتالة وأراجون والبرتغال إلى مياه جبل طارق بقيادة الدون چوفري تنوريو ليمنع الأمداد عن جيوش المغرب ، وبارك البابا الحملة ، وسارت قوى اسبانيا المتحدة للقاء المسلمين . وكان أبو مالك في تلك الأثناء قد زحف إلى أراضي النصارى واجتاح سهل باجانا وحصل على غنائم لا تحصى ؛ وهنا فاجأه الاسبان قبل أن يستطيع الارتداد إلى أراضي المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية هزم فيها المسلمون هزيمة شديدة وقتل أبو مالك ، وكان ذلك في أواسط سنة ٧٤٠ هـ (١٣٣٩ م) .

(١) راجع الإحاطة ج ١ ص ٣٢٩ وما بعدها .

وعندئذ عول السلطان أبو الحسن على العبور بنفسه إلى الأندلس ، ليثأر لتلك الهزيمة المؤلمة ، فجهز الجيوش والأساطيل الضخمة ، وبلغ أسطول المغرب يومئذ مائة وأربعين سفينة منها عدد كبير من السفن الحربية ؛ وجاز السلطان البحر إلى الأندلس في أوائل المحرم سنة ٥٧٤١ هـ (يولييه سنة ١٣٤٠ م) ونزل بسهل طريف ولاحق به السلطان يوسف في قوات الأندلس . وكانت الجيوش الإسبانية قد نفذت يومئذ إلى أعماق مملكة غرناطة ، ووصلت إلى الجزيرة الخضراء ، ورابط الأسطول النصراني في بحر الزقاق بين المغرب والأندلس ليمنع قدوم الأمداد والمؤن ، وضرب النصراني الحصار حول ثغر طريف وتغلبوا على حاميته ، ومضت أشهر قبل أن يقع اللقاء الحاسم بين الفريقين ، فشحت الأقوات بين المسلمين ، ووهنت قواهم . وفي يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠ (جمادى الأولى سنة ٥٧٤١ هـ) نشبت بين الفريقين معركة عامة على ضفاف نهر سالادو ، وتولى السلطان أبو الحسن قيادة جيشه بنفسه ، وتولى السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس ، ويقال إن الأندلسيين كانت لديهم في تلك الموقعة آلات تشبه المدافع ، وهي الآلات التي تطورت فيما بعد وكانت تسمى « بالأنفاط » . وتقدم الفونسو الحادى عشر بجيشه لمهاجمة المغاربة ، فصد في البداية بقوة ، واشتبك فرسان الأندلس مع جيش البرتغال . ولكن حدث عندئذ أن تسللت حامية طريف النصرانية إلى مؤخرة جيش المسلمين ، فدب الخلل إلى صفوفهم ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة سالت فيها الدماء غزيرة ، وقتل من المسلمين عدد جم ، وسقط معسكر سلطان المغرب الخاص في يد النصراني وفيه حريمه وحشمه وبعض أولاده ، فذبحوا جميعا على الأثر بوحشية مروعة ، وانتشرت قوات المسلمين وبددت ؛ وفر السلطان أبو الحسن ، واستطاع أن يعبر إلى المغرب مع فلوله ، وارتد السلطان يوسف إلى غرناطة ؛ واستولى النصراني على طريف والجزيرة الخضراء ؛ وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة « العقاب » (١) وكان لها أعمق وقع في المغرب والأندلس (٢) .

(١) هي الموقعة التي نشبت بين الموحدين والنصارى في الأندلس على مقربة من أبدة في سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) وفيها هزم الموحدون هزيمة شديدة . وتسمى موقعة العقاب بالأسبانية

Navas di Tolosa

(٢) راجع ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦١ و ٢٦٢ ؛ والاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢

ص ٦٦ و ٦٥ ؛ واللمحة البدرية ص ٩٣ و ٩٢ . وراجع أيضاً Scott: ibid : V. II. p. 478-82

وانتهز ملك قشتالة فرصة ظفوره وضعف المسلمين ، فغزا قلعة بني سعيد من أحواز
غرناطة واستولى عليها بعد حصار قصير (٧٤٢هـ) . وكان ملك المغرب في أثناء
ذلك يضطرم ظمأ الانتقام ويحشد قواته من جديد . ولما كملت أهبة أرسل أساطيله
إلى بحر الزقاق ، وسار بالبحيش إلى سبتة ، وبادر ملك قشتالة من جانبه بإرسال
أسطوله للاقاء المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة بحرية هزم فيها المسلمون
ومزق أسطولهم (٧٤٣هـ - ١٣٤٢م) . وحاصر النصارى ثغر الجزيرة الخضراء ،
وسار السلطان يوسف في جيشه لإنجاد الثغر المحصور ، وكان جيشه مجهزا بالآلات
القاذفة الحديدية التي تشبه المدافع ، ولكنه لم يفلح واضطر المسلمون إلى التسليم .

وكانت هذه الأحداث الخطيرة التي وقعت بالأندلس بين النصارى والسلاطون
أبي الحسن ، موضوعا لمكاتبات سياسية بين بلاط مراکش وبلاط القاهرة . وكان ثمة بين
ملوك مصر والمغرب منذ قيام دولة بني مرين سفارات ومكاتبات ردية متصلة . ففي
سنة ٧٣٩هـ أرسل السلطان أبو الحسن إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون ملك مصر
والشأم سفارة من بعض أكابر دولته وبرفقتهم ابنته الأميرة الحرة تريد الحج ، ومعهم
هدية فخمة من عتاق الخيل ونفيس المتاع والخلى قدرت بأكثر من مائة ألف دينار ،
ومصحف كتبه السلطان بيده ، وزين بماء الذهب ووضع في إطار فخم من الأبنوس
والصندل ، ليودع في الحرم الشريف ، فاستقبلهم الملك الناصر بالقاهرة أعظم استقبال
وجهزهم بكل مايلزم ، وأرسل إلى ملك المغرب هدية جلييلة (١) . ثم عاد السلطان
أبو الحسن فكتب على أثر هزائمه أمام النصارى في البر والبحر إلى سلطان مصر
الملك الصالح بن الملك الناصر قلاوون كتابا ينوه بما كان بينه وبين والد السلطان
من رسائل الود ، ويبسط له ماوقع من استغاثة أهل الأندلس به وإعداده الأساطيل
لقتال النصارى ، ثم مفاجأة النصارى لسفنه في البحر بأساطيل قوية ، وزحفهم على
الجزيرة الخضراء ومحاولة إنجادها عبثا ، ومعاونته لصاحب الأندلس بالمال والرجال ،
واستطالة الحرب ونفاد الأقوات ، واضطراره إلى عقد الصلح مع النصارى على
تسليم الجزيرة الخضراء ، وما فتحه الله من أخذ جبل طارق قبل ذلك ، وأنه مازال يتأهب
للجهاد بعد عوده . وقد كتب هذا الكتاب في صفر سنة ٧٤٥هـ .

(١) القرينى في السلوك في دول الملوك ج ٢ (٢) ص ٤٤٧، ٤٤٨؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٢٦٤ .

ورد ملك مصر على كتاب ملك المغرب في رمضان سنة ٧٤٥هـ بكتاب رقيق يبدى فيه أسفه على سقوط الجزيرة الخضراء ، ويعزيه عن فقد أسطوله وما نزل به من هزائم ، ويقول إن الحرب سجال ، وإن في سلامته الكفاية وإن الله قد يمن عليه بالظفر مرة أخرى ، ويبدى اغتباطه لاستيلاء السلطان على ثغر جبل طارق (١) .

وهنا طافت بالأندلس وإسبانيا تلك النكبة المروعة التي عصفت بالشرق والمغرب معا ، ونعني بذلك الوباء الكبير الذي اجتاحت سائر الأمم الإسلامية وحوض البحر الأبيض المتوسط في سنة ٧٤٩هـ - ٧٥٠هـ (١٣٤٨م) . وكان بدء ظهوره على ما يرجح في إيطاليا في ربيع هذا العام . وحمل من الأندلس كثيرا من سكانها ، وفي مقدمتهم عدد من رجالها البارزين من الكبراء والعلماء . وقد وصف لنا الوزير ابن الخطيب تلك المحنة التي كان معاصرها لها وشاهد عيان لروعها وفتكها في رسالة عنوانها : « منقذ السائل في المرض الهائل » .

ولبت ملك قشتالة أعواما أخرى على خطته من إرهاب المملكة الإسلامية والعيث فيها ، والمسلمون يدافعون جهدا استطاعتهم ، وأمراء المغرب مشغولون عن نجدتهم بما أصابهم من هزائم متوالية ، وما شجر بينهم من خلاف . وفي سنة ٧٥٠هـ (١٣٤٩م) غزا النصارى سهول الجزيرة الخضراء مرة أخرى ، وكان ملك قشتالة يرمى بهذه الغزوة إلى غاية هامة هي الاستيلاء على جبل طارق . وكان هذا الثغر ما يزال منذ عصور أمنع ثغور المسلمين وأشدّها مراسا . فلما رأى النصارى استحالة أخذ عنوة ضربوا حوله الحصار الصارم ، وكانت تدافع عنه حامية مغربية قوية ، ورابط ملك غرناطة بجيشه في مؤخرة النصارى ؛ واستمر حصار جبل طارق زهاء عام كامل والمسلمون صامدون كالصخرة التي يدافعون عنها ، وقد عيل صبر الغزاة ودب الوهن إلى نفوسهم . ثم فشا الوباء في الجيش النصارى وهلك ملك قشتالة في مقدمة من هلك من جنده ، فكان ذلك نذيرا لخلاص الثغر المنيع والمدافعين عنه ، واضطر النصارى إلى رفع الحصار (٧٥١هـ - ١٣٥٠م) . وأنقذ المسلمون بذلك من كارثة فادحة ، وأبدى المسلمون بهذه المناسبة ضروبا

(١) لم ينقل الينا الفلقشندي في صبح الأعشى نص هذين الكتابين ، ولكن نقلهما الينا المقرئ

موثرة من تسامح الفروسية ، فتركوا موكب الملك المتوفى يخترق طريقه إلى إشبيلية دون تعرض ، وارتدى كثير من أكابرهم شارة الحداد مجاملة وتكريما ، وخلف الغونسو على العرش في الحال ولده بياسرو (بطره) الملقب بالقاسي (١) .

ووصف ابن الخطيب كاتب الأندلس وشاعرها ، وقد كان يومئذ من كتاب السلطان يوسف ، هذه الأحداث الخطيرة في رسالة بعثها السلطان إلى ملك المغرب ، وفيها يشير إلى مهاجمة العدو لجبل طارق وطمعه في الاستيلاء على الأندلس ويقول : « وانتمز الفرصة بانقطاع الأسباب وانهايم الأبواب ، والأمور التي لم تجر للمسلمين بالعدوتين على مألوف الحساب ، وتكالب التثليث على التوحيد وساءت الظنون في هذا القطر الوحيد ، المنقطع بين الأمة الكافرة ، والبحور الزاخرة والمرام البعيد » ثم يصف كيف تداركت رحمة الله الأندلس بعد ذلك فهزم العدو ولم يبلغ مراما (٢) .

وكان لحصار جبل طارق ومصرع ملك قشتالة تحت أسواره ، صدى عميق في المغرب وفي أنحاء العالم الإسلامي . ويشير الرحالة الأشهر ابن بطوطة الطنجي الذي زار الأندلس بعد ذلك بتقريب في رحلته إلى تلك الحوادث ، وإلى ما كان يتصوره ملك قشتالة ، من أنه أضحى على وشك الاستيلاء على ما بقي من بلاد الأندلس ، فأخذ الله من حيث لم يحتسب ومات بالوباء الذي كان من أشد الناس خوفاً منه ، ثم يصف لنا أهمية جبل طارق الدفاعية وما بذله السلطان أبو الحسن عقب استرداده من جهود فادحة لتحسينه ، وتجديد أسواره وحصونه ، وإنشائه لدار الصناعة ، وما قام به ولده السلطان أبو عنان بعد ذلك من تجديد تحصيناته وشحنه بالعدد والأقوات . ويصف لنا ابن بطوطة بعد ذلك ثغور الأندلس وقواعدها الأخرى التي طاف بها يومئذ ، مثل رندة ومريلة ومالقة وبلش ، وما شاهده فيها من الحيرات والصناعات الفريدة ولاسيما صناعة الخبز بمالقة ، ثم يعرج على غرناطة وينعتها بعروس الأندلس ، ويصف لنا رياضها وبساتينها الغراء ، ويشير إلى ماكها في عهد دخوله إياها وهو السلطان أبو الحجاج يوسف ، ولم يوفق يومئذ إلى لقائه لمرض ألم به .

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٣ .

(٢) راجع هذه الرسالة في نصح الطيب ج ٢ ص ٥٧٠ و ٥٧١ .

وتدلى أوصاف ابن بطوطة بأن الأندلس كانت يومئذ بالرغم من توالى غارات
النصارى عليها وعيهم في ربوعها، بلاداً زاهرة نضرة، تزخر بالخيرات والنعم، وتموج
بالملايين من سكانها النشطين الأذكياء، وصناعاتها الممتازة، وتحتشد فيها جمهرة
كبيرة من العلماء والفقهاء والكتّاب والشعراء، مما يدل على أنها كانت في هذا العصر
تجوز أيضاً نهضة أدبية زاهرة (١). ولا غرو فقد كان هذا العصر هو الذى سطع فيه
نجم ابن الخطيب أعظم كتاب الأندلس وشعرائها في المائة الثامنة، وبلغ فيه الشعر
والترسل يومئذ ذروة الروعة والبهاء.

واستمر أبوالحجاج يوسف في الحكم بضعة أعوام أخرى ساد فيها السلام
والأمن، ولكنه ما لبث أن قتل غيلة أثناء صلاته المسجد الأعظم في يوم عيد الفطر
سنة ٧٥٥ هـ (أكتوبر سنة ١٣٥٤ م) قتله مجبول لم يفتح عن بواعثه وأغراضه،
فزق وأحرق بالنار على الأثر (٢). وكان مقتله وهو في السابعة والثلاثين في عنفوان
فتوته ومجده. ويصف لنا ابن الخطيب وقد كان من شهود هذا المنظر المؤسى،
مقتل السلطان، في قوله من رسالة بعث بها إلى السلطان أبي عنان ملك المغرب « ولم
يرعه وقد اطمأنت بذكر الله تعالى القلوب، وخلصت الرغبات إلى فضله المطلوب،
إلا شقى قيضه الله تعالى لسعادته، غير معروف ولا منسوب، وخيبت لم يكن
بمعتبر ولا محسوب، تخلل الصنفوف المعقودة، وتجاوز الأبواب المسدودة، وخاض
الجموع المشودة، لا تدل العين عليه شارة ولا بزة، ولا تحمل على الخذر من
مثله أنفة ولا عزة، وإنما هو خيبت ممرور وكلب عقور، وآلة مصرفة لينفذ بها قدر
مقدور، فلما طعنه وأثبتته وأعلق به شرك الحين، فما أفلته حتى قبض عليه من
الخلصان الأولياء، من خير ضميره وأحكم تقريره، فلم يجب عند الاستفهام جواباً يعقل
ولا عثر على شيء عنه ينقل، لطفاً من الله أفاد براءة الذمم، وتعاورته للحين أيدي
التمزيق وأتبع شلوه بالتمزيق» (٣). ودفن السلطان الشهيد في مقبرة الحمراء إلى جانب
آبائه مبكياً عليه من شعبه بدموع غزيرة. وكان السلطان يوسف في الواقع أعظم

(١) راجع رحلة ابن بطوطة (مصر) ج ٢ ص ١٨٣ — ١٨٨ .

(٢) المحجة البدرية ص ٩٧ .

(٣) راجع نفع الطيب ج ٢ ص ٥٦٥ .

ملوك غرناطة همة وعزماً ، وأبدعهم نخالاً ، وكان فوق فروسته ونجدته عالماً أديباً ، شغوفاً بالعمارة وإقامة الصروح الباذخة ؛ وهو الذي شيد البرج الأعظم بقصر الحمراء ، وأنشأ به أفخم أجنحته وأبدعها . وهو الذي أسبغ على هذا الصرح العظيم منمشتاته وزخارفه ، بهاءه وروعته التي ما زال يحتفظ بلمحة منها . وفي عصره زهت العلوم والآداب ؛ وذاعت شهرة العلماء المسلمين ولاسيما في الفلك والكيمياء .

وهكذا لبث بلاط غرناطة حقبة يقف من دولة بني مرين مواقف متناقضة ، ويردد بين سياسة التحالف والقطيعة ، وبين الثقة والتوجس ؛ وليس من شك في أن بني مرين كانوا عضداً قيمياً لمملكة غرناطة الناشئة ، وقد أدوا لها في ميدان الجهاد وفي مقاتلة النصارى خدمات جليلة ، وبدلوا في ذلك السبيل تضحيات حمة ، وأعادوا بانتصارهم على النصارى في غير موقعة حاسمة . ذكريات الزلافة والأرك ؛ ولولا غوث بني مرين واشتغال مملكة قشتالة بجهادها الداخلي غير مرة ، لما اشتد ساعد بني الأحمر وسطعت دولتهم خلال هذه الفترة المليئة بالحوادث الحسام ، واستطالت أيام الإسلام بالأندلس زهاء مائة عام أخرى . وقد كان من سوء الطالع ألا يدرك بلاط غرناطة خطر الخلاف مع الخليف الطبيعي الذي رتبته القدر فيما وراء البحر ، لإنجاد الأندلس عند الخطر الداهم ، وأن ينجح من آن لآخر إلى محاصرة هذا الخليف ومحاربتة ، كما حدث حينما استولى ابن الأحمر على سبتة . كذلك لم تخل سياسة بني مرين ازاء مملكة غرناطة أحياناً من الالتواء وبث الشكوك في نفوس أمراء بني نصر ، بما كانت تبجح إليه من مداخلة الخوارج عليهم . وهكذا كانت قوى الإسلام تبتد في معارك أهلية ، وقد كان حرياً أن تتضافر على مغالبة العدو المشترك . على أن الدولة المرينية ذاتها ، تدخل منذ وفاة السلطان أبي الحسن في سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١ م) في دور انحلالها ، وتنحدر إلى نحر الحرب الأهلية ، وتشغل بشئونها الداخلية ، وتفقد غرناطة بذلك ، العضد الوحيد ، الذي كانت تدخره وقت الشدائد . وقد استمرت العلائق بين غرناطة وبني مرين عصراً آخر ، ولكنها غدت غير بعيد علائق بلاط ، تغلب عليها دسائس القصور ، وانقطعت الحيوش المغربية عن العبور إلى الأندلس لمقاتلة النصارى ، كما كانت تفعل أيام أبي يوسف

وأبى يعقوب وأبى الحسن ، ولم تعبر بعد ذلك سوى مرة واحدة لمعاونة الخوارج في جبل طارق ضد ملك غرناطة حسبما يجيء ؛ وتركت غرناطة من ذلك الحين إلى مصيرها داخل الجزيرة الإسبانية ، تغالب قوى النصرانية بمفردها وقدر استطاعتها ، وكان ملاذها الأخير في اختلاف كلمة النصارى ، وانشغالهم بذلك الخلاف عن محاربتها .

الفصل الثامن

الأندلس بين المدّ والجزر

ولاية محمد الغنى بالله . وزيره ابن الخطيب . سفارته الى السلطان ابي عنان . ثورة حاكم جبل طارق المريني . الثورة في غرناطة . مقتل الحاجب رضوان . عزل الغنى بالله وفراره . ولاية أخيه اسماعيل . جواز الغنى بالله وابن الخطيب الى المغرب . ترحيب ملك المغرب بهما . قصيدة ابن الخطيب . ابن الخطيب وابن خلدون . مصرع سلطان المغرب وتغلب الوزير عمر على الدولة . الثورة في غرناطة ومقتل السلطان اسماعيل . عبور الغنى بالله وابن الخطيب الى الأندلس . استرداد الغنى بالله للعرش . زيارة ابن خلدون للأندلس وسفارته الى بلاط قشتالة . الحرب الأهلية في قشتالة . موقعة نجارا . موقعة مونتيل . مصرع بيدرو ملك قشتالة وولاية أخيه الكونت هنرى . رواية ابن الخطيب عن هذه الحوادث . وزارة ابن الخطيب الثانية . استنثاره بالسلطة وجنوحه الى الاستبداد . تقلص نفوذه وفراره الى المغرب . اتهامه بالزندقة ومقتله . بعد نظره السياسى . شعوره بمصير الأندلس . جهود الغنى بالله الانشائية . توطد الصداقة بينه وبين بلاط مصر . سيادة السلام والأمن فى عصره . غزواته فى أرض النصارى . وفاته وولاية يوسف الثانى . وزيره خالد . عقد السلم بين الأندلس وقشتالة . ثورة محمد ولد يوسف . وفاة يوسف وولاية ولده محمد . اعتقاله لأخيه يوسف . الوزير ابن زمرك ومصرعه . الحرب بين المسلمين والنصارى . استنجاد الأندلس بملوك المغرب . غزو النصارى لأحوار رنده . غزو المسلمين لأراضى قشتالة . الهدنة بين الفريقين . وفاة محمد . العلائق بين غرناطة وأراجون . ولاية يوسف الثالث . تقضى القشتاليين للهدنة . زحفهم على أراضى غرناطة . سقوط أنتكيره وهزيمة المسلمين . تجديد الهدنة . ثورة جبل طارق واخمادها . السلم بين المسلمين والنصارى . حفلات الفروسية الأندلسية . وفاة السلطان يوسف وولاية ولده محمد الأيسر . صرامته وتكبره . الوزير يوسف بن سراج . بنو سراج وأصلهم . تعاقب الفتن فى غرناطة . غزوات النصارى . نشوب الثورة وسقوط الأيسر . ولاية محمد الزغير . خلاله وصفاته . مطاردته لبني سراج . التجاؤهم الى بلاط قشتالة . السعى لاعادة الأيسر . زحفه على غرناطة ودخوله الحمراء . مصرع الزغير وولاية الأيسر الثانية . الحرب بين الأيسر والنصارى . الفتن والدسائس حول عرش غرناطة . قيام يوسف بن الأحمر بمعاونة النصارى . الحرب بينه وبين الأيسر .

هزيمة الأيسر وولاية يوسف . وفاته وولاية الأيسر الثالثة . الحرب بين المسلمين والنصارى . مهاجمة النصارى لجبل طارق وهزيمتهم . تطور الحوادث في غرناطة . ثورة محمد الأحنف وولايته . الأمير سعد بن اسماعيل وسعيه لانتزاع العرش . تدخل النصارى ودسائسهم . الحرب الأهلية في غرناطة . هزيمة الأحنف وولاية ابن اسماعيل . خلاله وصفاته . الخلاف بينه وبين قشتالة . غزو القشتاليين لغرناطة . سقوط جبل طارق . انحلال دولة بنى مرين وقيام دولة بنى وطاس . قصور المغرب عن انجاد الأندلس . خضوع سلطان غرناطة لقشتالة . الصراع بين العرش والاسر الكبيرة . تفكك المملكة الاسلامية . وفاة السلطان ابن اسماعيل . فتح الترك لقسطنطينية وصداه في اسبانيا . احياء النزعة الصليبية . تربص النصرانية بالاندلس .

لم تمض ساعات قلائل على مصرع السلطان يوسف أبى الحجاج فى صحبحة يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥ هـ ، حتى خلفه فى الملك ولده محمد الملقب بالغنى بالله ، وكان كحدثاً يافعاً ، فاستأثر بشئون الدولة حاجبه ومولى أبيه من قبل أبو النعمان رضوان . وكانت غرناطة بعد ما توالى عليها من الخطوب والأزمات فى أواخر عهد أبيه يوسف قد تنفست الصعداء نوعاً منذ وفاة ملك قشتالة . وكان من بين كتابه ثم وزرائه لسان الدين بن الخطيب مؤرخ الدولة النصرى وأعظم شعراء الأندلس وكتابتها يومئذ . وكان هذا المفكر البارع أحد رجلين عظيمين شغلا يومئذ فى الغرب الإسلامى مركز الصدارة فى التفكير والكتابة ، هما ابن خلدون وابن الخطيب . وكان مولد ابن الخطيب فى كوشه من أعمال غرناطة فى سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) ، ودرس الطب والفلسفة وبرز فى النثر والنظم (١) ، وخدم الدولة منذ أحداثه فتولى ديوان الكتابة للسلطان أبى الحجاج ، ثم انتقل إلى خدمة ولده محمد ، فلم يلبث أن نال ثقته ورفاه إلى مرتبة الوزارة ، وأوفده بعد ولايته بقليل على رأس وفد من كبراء الأندلس سفيراً من قبله إلى ملك المغرب السلطان أبى عنان المرينى (٧٥٥ هـ) يستنصره على مغالبة طاغية قشتالة ، وليؤكد بينهما عهد الصداقة والمودة ، جرياً على سنة أسلافه من ملوك بنى الأحمر ، فاستقبله السلطان بحفاوة ، وأنشد بين يديه قصيدة هذا مطلعها :

خليفة الله ساعد القدر علاك ما لاح فى الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشر

(١) سنعود إلى ترجمة ابن الخطيب واستعراض حياته الأدبية بافاضة فى الكتاب الرابع .
٧ أندلس

فتأثر السلطان لتقصيده ووعده باجابة سائر مطالبه ؛ وهكذا أدى ابن الخطيب سفارته بنجاح ، وكان له فيما تلا من حوادث الأندلس أعظم نصيب (١) .

وفي أواخر سنة ٥٧٥٦ (أواخر سنة ١٣٥٥ م) حاول حاكم جبل طارق المريني عيسى بن الحسن بن أبي منديل أن يثير ضرام الثورة ، وكانت محاولة خطيرة ربما أفسحت للنصارى ثغرة يضربون منها الأندلس وجحافل المغرب ؛ ولكن أهل جبل طارق نسكلوا عن مؤازرة النائر ، وأخذت ثورته في المهيد ، وقبض عليه وعلى ولده ، وأرسلوا مصنفدين إلى المغرب ففضى باعدامهما ؛ وأرسل السلطان أبو عنان إلى جبل طارق ولده أبا بكر السعيد ومعه قوة من الفرسان ، لحماية الثغر وتجديد تحصيناته (٢) .

وفي أوائل عهد السلطان محمد شغلت قشتالة بحروبها الداخلية ، فأمنت غرناطة شر العدوان مدى حين . ولكن الحوادث الداخلية كانت تؤذن بتطورات جديدة . ففي رمضان سنة ٥٧٦٠ (١٣٥٩ م) نشبت في غرناطة ثورة فقد فيها الغنى بالله ملكه . وكان أخوه اسماعيل المعتقل في بعض أبراج الحمراء تؤازره جماعة من الزعماء ، وفي مقدمتهم صهره الرئيس عبد الله ، وتدعو له سرا ، وترقب الفرص للوثوب بمحمد ، وكانت أمه المقيمة بالتصير تؤيد مشاريعه بالسعى والبذل الوفير ، وكان السلطان محمد قد تحول بولده إلى سكنى قصر جنة العريف الواقع شمال شرقى الحمراء ، فانهز المتآمرون ذات مساء فرصة ابتعاده عن دار الملك ، وهاجموا حصن الحمراء (٢٨ رمضان سنة ٥٧٦٠) ونفذوا إلى قصر الحاجب رضوان وقتلوه بين أهله وولده ، ونادوا باسماعيل أخى السلطان ملكا مكانه . وشعر محمد بعقم المدافعة ففر إلى وادى آش . وحاول ابن الخطيب مصانعة السلطان الحديد فاستبقاه في الوزارة لمضى قصير . ثم ارتاب في نيته وأمر باعتقاله . وكانت تربط السلطان المخلوع علائق مودة وصداقة بملك المغرب السلطان أبي سالم ولد السلطان أبي الحسن . وكان أبو سالم قد لحأ إليه حينما تغلب عليه أخوه السلطان أبو عنان ونفاه إلى الأندلس ، فأكرم محمد مشواه . ولما وقعت الفتنة ونزع محمد ، رعى له أبو سالم عهد الصداقة والوفاء ، وأرسل إلى غرناطة سفيرا يسعى لدى حكومتها في إجازة السلطان المخلوع

(١) راجع الإحاطة ج ٢ ص ٥ — ٧ ؛ ونفح الطيب ج ٣ ص ٥٢ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٣٧٣ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١٨٤ .

ووزيره المعتقل إلى المغرب ، فنجح السفر في مهمته ، وعاد إلى المغرب ومعه محمد والوزير ابن الخطيب (المحرم سنة ٧٦١هـ) . واستقبلهما أبو سالم في فاس أحمل استقبال . واحتفل بقدمهما في يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ قصيدة رائعة ، يدعوه فيها لنصرة سلطانه وغوثه ، هذا مطلعها :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر
وهل باكر الوسمى دارا على اللوى
بلادى التي عاطيت مشمولة الهوى
وجوى الذى ربي جناحى وكره
ومنها :

قصدناك يا خير الملوك على النوى
وأنت الذى تدعى اذا دهم الردى
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا
لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
وأنت الذى ترجى اذا أخلف القطر
بيالمرين جاءه العز والنصر

فكان لإنشاده أعظم وقع فى النفوس ، وتأثر السلطان لدعوته وندائه أيما تأثر (١) . ولبث السلطان المخلوع فى بلاط فاس حيناً ، وتوثقت بينه وبين المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون وهو يومئذ من أكابر رجال الدولة المرينية ، روابط المحبة والصدقة ، وعقدت أيضا بين المؤرخ وبين قرينه ابن الخطيب أواصر صداقة نمت وتوثقت فيما بعد . وكان كلا المفكرين العظيمين يقدر مواهب صاحبه ويحله أسمى مقام ، وكان كلاهما أستاذ عصره وقطره فى التفكير والكتابة . وكان محمد ابن الأحمر يؤمل أن يسترد ملكه المنزوع بمعاونة بيدرو الثانى (بطر) ملك قشتالة تنفيذاً للاتفاق الذى عقد بينهما ، ولكنه لم يفعل شيئاً لتحقيق هذا الأمل . والواقع أن ملك قشتالة كان مشغولاً باضطرابات مملكته ، فأثر أن يعقد السلم مع سلطان غرناطة الحديد . وفى أثناء ذلك حدث انقلاب لقي فيه السلطان أبو سالم مصرعه ، واستبد بالدولة الوزير عمر بن عبد الله ، فسعى لديه ابن الأحمر ليعاونه على استرداد ملكه ، فاستجاب إليه الوزير ، ومازال محمد يدبر أمره بمعاونته ، حتى تهيأت الفرصة

(١) اللوحة البدرية ص ١٠٨ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٣٠٦ وما بعدها ؛ وأزهار الرياض ج ١

بوقوع الثورة في غرناطة ومقتل منافسه السلطان اسماعيل على يد المتغلب عليه الرئيس أبو سعيد ؛ فجاز إلى الأندلس مع وزيره ابن الخطيب واستولى على مالقة ، ثم سار في صحبه وعصبته إلى غرناطة فاستولى عليها ، وفر الرئيس أبو سعيد إلى ملك قشتالة ، واسترد محمد ملكه (جمادى الآخرة ٧٦٣ هـ - ١٣٦١ م) . ووفد عليه المؤرخ ابن خلدون بعد ذلك بقليل ، فاحتفى به وأكرم مثواه ، وأرسله سفيرا عنه إلى بيدرو ملك قشتالة ليوثق أو اصر الصداقة بينهما (٧٦٥ هـ - ١٣٦٣ م) ، فقصده ابن خلدون إلى بلاط إشبيلية ومعه هدية فخمة وأدى سفارته ببراعة ، وحظى بعطف ملك قشتالة وإعجاب به . وهو يعرض لنا حوادث هذه السفارة في « التعريف » بتفصيل شائق ، ويقول لنا إنه عاين آثار أسرته باشبيلية ، وقد كانت منزل بني خلدون أيام الدولة الإسلامية ، وفيها سطع نجمهم حيناً ، وان ملك قشتالة وقف على تاريخ أسرته ، وعرفه به وبمكانته طبيب يهودى في بلاطه يدعى ابراهيم بن زرور ، وكان قد تعرف به في مجلس السلطان أبي عنان من قبل ، ثم يقول لنا إن ملك قشتالة عرض عايه عندئذ أن يبقى في خدمته ، وأن يسعى لدى زعماء دولته ليرد إليه تراث أسرته باشبيلية ، ولكنه أبى . ولما اعتزم ابن خلدون العودة بعد أن أتم مهمته ، وهبه ملك قشتالة « بغلة فارهة بمركب ثقيل ولحام ذهبيين » فأهداهما إلى السلطان . وسر السلطان لنجاحه وأقطعته قرية إلبيرة بمرج غرناطة ، وعاش في بلاط السلطان فترة أخرى ، معززا مكرما (١) . ولم يمض قليل على ذلك حتى شغلت قشتالة مدى حين بمنازعاتها وحروبها الداخلية ، وتمتعت غرناطة خلال ذلك بهدنة قصيرة . وكان بيدرو ملك قشتالة (دون بطره) الملقب بالقاسى الذى خلف أباه الفونسو الحادى عشر فى سنة ١٣٥٠ م ، قد غلا فى استبداده وقسوته حتى أنه لم يحجم عن قتل زوجته الملكة بلانش دى بوربون أخت ملكة فرنسا بالسم ، ليتزوج من خليلته ، فسخط عليه الأمراء والأشراف لما نالهم من عسفه ، وخرج عليه أخوه غير الشرعى الكونت هنرى دى تراسمارا ، ولد الينورا دى كزمان وفر إلى فرنسا ، وتحالف مع ملكها شارل الخامس ، على أن يجمع له جيشا من المرتزقة يقوده إلى قشتالة ، وأشرف

(١) راجع تفاصيل هذه السفارة فى ابن خلدون ، فى « التعريف » أو ترجمته لحياته ج ٧ ص ٤١٢ ، والاحاطة ج ٢ ص ١٥ .

على تنفيذ المشروع الدوق دى جسكلان زعيم الفروسية الفرنسية يومئذ . وقاد هنرى جيشه إلى قشتالة (١٣٦٦م) فلم يقو بيدرو على مقاومته لاشتداد السخط عليه ، وتخلي الشعب عنه ، وفر إلى ولاية جوين الفرنسية فيما وراء البرنيه ، واستغاث بالأمير ادوارد ولى عهد إنجلترا الذى كان يحكم هذه الأنحاء المحتلة من فرنسا باسم أبيه ، فاستجاب الأمير الانجليزى لدعوته ، وسار معه إلى قشتالة فى قواته ، واستطاع الكونت هنرى بمعاونة شعبه ومعاونة ملك أراجون أن يحشد جيشاً عظيماً . والتقى الفريقان فى « نجارا » فى الثالث من ابريل سنة ١٣٦٧ ، فهزم الكونت هنرى بالرغم من وفرة جموعه ، وقتل عدد كبير من جيشه ، واسترد بيدرو عرشه . ولكنه لم يف بوعده إلى الأمير الانجليزى ، ولم يؤد إليه الجزية المشترطة ، فسخط عليه وارتد بقواته إلى الشمال . وعندئذ عادت الثورة إلى الاضطراب فى قشتالة ، ووثب الشعب بيدرو مرة أخرى ، وعاد أخوه الكونت هنرى فغزا قشتالة فى أنصاره ، ونشبت بين الفريقين فى « مونتيل » موقعة أخرى هزم فيها بيدرو وقتل ، وجلس أخوه مكانه على العرش (سنة ١٣٦٨م) (١) . وكان بين قوات الملك القتييل فرقة من حلفائه المسلمين تعاونه وتلدود عنه .

وقد فصل لنا ابن الخطيب حوادث الحرب الأهلية فى قشتالة فى تلك الفترة ، وقد كان معاصراً لها وقريباً من مسرحها . وروايته تدل على حسن اطلاعه ودقة فهمه لسير الحوادث ، فهو يقول لنا مثلاً بعد أن أشار إلى ثورة الكونت هنرى على أخيه واستيلائه على العرش :

« ولما توسد له الأمر تحرك لاستئصال شأفة الخلوع ، فأجلى عن غليسية فى البحر ، واستقر وراء دروب قشتالة ، وانتبذ عن الخطة القشتالية ، ولجأ إلى ابن صاحب الأنتكيرة (إنجلترا) وهو المعروف ببرقسين ، وبين أرضه وبين قشتالة ثمانية أيام ، فقبله ولد السلطان المذكور بأول ما تلقاه من تلك الأرض ، وسفريبنه وبين أبيه ، فأنكر الأب استئذانه اياه والمراجعة فى نصره ، حمية له وامتناعاً منه . وحال هذه الأمة غريبة فى الحماية المزوجة بالوفاء ، والرقة والاستهانة بالنفوس فى سبيل الحمية ، عادة العرب الأول ، وأخبارهم فى القتال غريبة وبعد انقضاء سبعة

عشر يوماً كان رجوعه ورجوع الرئيس المذكور معه مصاحباً بأمراء كثيرين من أخذانه ، وبعد أن تسلموا مالا كثيراً . . . وكان اللقاء بين الفريقين يوم السبت سادس ابريل العجى بموافقة شعبان من عام ثمانية وستين (ابريل ١٣٦٧ م) . وكان هذا الجمع الإفرنجى آتين من الأرض الكبيرة (فرنسا) . . . وكان على مقدم القوم المذك (اللوق) أخو البرنس (Prince of Wales) وكان فى مقدمة القند (الكونت) المستأثر بملك قسنالة أخوه شانجة (سانشو) . . الخ . ثم يحدثنا بعد ذلك عن هزيمة « القند » وفراره إلى فرنسا ، واستمرار الفتنة بينهم إلى وقت كتابة روايته (١) .

تولى ابن الخطيب وزارة الغنى بالله للمرة الثانية ، وهو متمتع بأقصى مراتب العطف والثقة ، واستأثر فى البلاط وفى الدولة بكل نفوذ وسلطة ، وقضى على نفوذ منافسه الوحيد فى السلطة وهو شيخ الغزاة عثمان بن يحيى ، وما زال بالسلطان حتى نكبه ، فخلا له الجو وتبوأ ذروة القوة والسطان . وكان من معاونيه فى الوزارة تلميذه الكاتب والشاعر الكبير أبو عبد الله بن زرك ، وقد تولى كتابة السر فى كنفه وتحت رعايته . والظاهر ان اجتماع السلطان والنفوذ فى يد ابن الخطيب على هذا النحو كان سبباً فى انحرافه عن جادة الاعتدال والروية ، فجنح إلى الاستبداد وسوء السيرة ، وبث حوله معتركا من البغضاء والخصومة ، وكثرت فى حقه السعاية والوشاية ، واتهمه خصومه بالإلحاد والزندقة لما ورد فى بعض كتاباته . وشعر ابن الخطيب فى النهاية أن السعاية قد بدأت تحدث أثرها ، وأن عطف مليكه قد فتر وخشى العاقبة على نفسه ، فعول على مغادرة الأندلس ، وسار إلى الثغور الغربية فى نفر من خاصته بحجة تفقدتها وعبر البحر فجأة إلى سبتة (٥٧٧٣ هـ) بتفاهم سابق بينه وبين ملك المغرب . وهكذا غادر ابن الخطيب الوطن والأهل والسلطان ، بعد أن تربع فى الوزارة للمرة الثانية زهاء عشرة أعوام . وخلفه فى الوزارة تلميذه ابن زمرك ، وكان قد انقلب عليه فى أواخر أيامه ، وغدا من خصومه وأشدهم سعياً إلى نكبه .

وقضى ابن الخطيب فى منفاه زهاء ثلاثة أعوام ، ولكن بلاط غرناطة وخصومه فى الأندلس لم تغتر همتهم عن ملاحقته ، فسعوا لدى بلاط فاس فى القبض عليه واتهامه بالزندقة ، وكلل مسعاهم آخر الأمر بالنجاح ، واعتقل ابن الخطيب

وألقى بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب قتله تنفيذا لحكم الدين ، ودُس عليه بعض الأوغاد ، فقتلوه في سجنه وذلك في أواخر سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٥ م) . وهكذا ذهب الكاتب والشاعر الكبير ضحية الغدر السياسي والتعصب الشائن (١) .

وكان ابن الخطيب سياسيا بعيد النظر ، وكان يرى في حوادث الأندلس شيخ المستقبل الرهيب واضحا ، ويستشف بنافذ بصيرته ما وراء الحجب من نهاية محتومة لهذا الوطن الذي مزقته الأهواء وأضنته الفتنة ، وكان يرى هذا المصير الحزن قبل وقوعه بأكثر من قرن ، ويهيب بقومه وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر أن يبادروا إلى غوثه ونصرته ، وله في ذلك رسائل ونداءات عديدة مؤثرة تفيض قوة وبلاغة ، في الحث على اليقظة ، والدود عن الدين والوطن ، والندير بما يهددهم ويهدد دينهم ووطنهم من خطر المحو والفناء ، إذا تقاعسوا أو تخاذلوا وافتقرت كلمتهم (٢) .

وأبلغ من ذلك كانه في الدلالة على شعور ابن الخطيب بخطر الفناء الذي ينتظر الأندلس ، ما وجهه في وصيته إلى أولاده من النصيح بعدم الإسراف في اقتناء العقارات بالأندلس إذ يقول لهم : « ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد الذي لا يصاح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العقار فيصبح عرضة للمدلة والاحتقار ، وساعيا لنفسه أن يتغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار ، ومعوقا عن الانتقال أمام النوب الثقال ، وإذا كان رزق العبد على المولى فالإجمال في الطلب أولى » (٣) .
وسلك الغنى بالله في حكمه مسلك القوة والحزم واشتهر بصرامته وعدله ، وعنى بمشاريع الإنشاء والعمران ، فأمر ببناء المارستان الأعظم (المستشفى) في غرناطة وأنفق عليه أموالا عظيمة ، وعنى بتحسين الثغور وعمل على بث روح الجهاد والحمية في النفوس ، للدفاع عن الدين والوطن ، وكان داعيته في ذلك وسفيره

(١) تناولنا هذه الحوادث بالتفصيل عند كلامنا عن حياة ابن الخطيب في الكتاب الرابع .
وراجع ابن خلدون ج ٧ ص ٣٤٠ و ٣٤١ . هذا وقد دون ابن الخطيب ما شهدته في منفاه في المغرب لأول مرة من الحوادث والمحس في كتاب سماه « نفاضة الجراب في علالة الاغتراب » (المحة البدرية ص ١١٣) .

(٢) نقل إلينا المقرئ في نصح الطيب وأزهار الرياض كثيرا من هذه الرسائل . وراجع الاطاحة ج ٢ ص ٣١ - ٣٩ .

(٣) نقل إلينا المقرئ في نصح الطيب وصيه ابن الخطيب كاملة ، وهي من أبداع الوصايا الأبوية السياسية (ج ٢ ص ٤٢٥ وما بعدها) وكذلك في أزهار الرياض ج ١ ص ٣٢ وما بعدها .

إلى جمهور الأمة ، وزيره القوي البليغ ابن الخطيب ، فعمل على إذكاء الشعور برسائله وخطبه المؤثرة حسبما أسلفنا .

وفي أواخر سنة ٥٧٦٧هـ (١٣٦٦م) نظم بعض الزعماء الخوارج مؤامرة لخلع السلطان وإقامة بعض قرابته مكانه . وهاجم الخوارج قلعة الحمراء فزقتهم الجند وقبض على زعيمهم ، وزاد فشل المؤامرة مركز السلطان توطدا .

وفي عصر الغنى بالله توثقت أواصر الصداقة والمودة بين بلاط غرناطة وبلاط القاهرة ، واتصلت بينهما السفارة والمكاتبة . ومما وقفنا عليه من ذلك رسالة بعث بها « أمير المسلمين » بالأندلس محمد بن يوسف بن اسماعيل الغنى بالله ، إلى سلطان مصر الأشرف شعبان ، وهي من إنشاء وزيره ابن الخطيب . وفيها يعرب سلطان غرناطة عن اغتباطه بتلقى رسالة سلطان مصر ، ويشيد بموقف غرناطة كمرکز للجهاد ، وتعرضها الدائم لمهاجمة العدو ، ويتقدم إلى السلطان الأشرف بالتهنئة على ماحرزت جنوده من نصر حاسم على الفرنج في موقعة الإسكندرية في سنة ٥٧٦٧هـ (١٣٦٥م) (١) ، وانه مما يزيد في غبطتهم أن هذا الحادث لا بد أن يذكر في شعور الإشفاق والعطف على الأندلس ، التي يدهمها الأعداء بشرهم من البر والبحر بلا انقطاع (٢) .

واستطال حكم الغنى بالله حتى سنة ٥٧٩٣هـ (١٣٩١م) وساد الأمن والسلام في عصره ، وشغلت قشتالة عن محاربة المسلمين بحوادثها الداخلية وحروبها الأهلية ، وغلب التهادن في تلك الفترة بين غرناطة وقشتالة ، واستطاعت السياسة الغرناطية أن تنهز فرصة الحوادث الداخلية في المملكة النصرانية ، وأن تمد يد التحالف والحماية غير مرة لملك قشتالة المخلوع بيدرو القاسي ، إذكاء للحرب الأهلية بين النصاري . ولم يخل عصر الغنى بالله من مواطن الجهاد ، فقد استطاع أن ينتزع ثغر بطرنة الواقع بين مالقة ورندة من أيدي النصاري (٥٧٦٧هـ) ، وغزا مدينة جيان

(١) هاجت حملة من الفرنج بقيادة لوسنيان ملك قبرص ثغر الاسكندرية في صفر سنة ٥٧٦٧هـ ، واحتل الفرنج الاسكندرية أياما ولكنهم هزموا وطردها بعد معارك شديدة .

(٢) يراجع نص هذه الرسالة بأكملها في صبح الأعشى ج ٨ ص ١٠٧ - ١١٥ ، وهي نموذج بارز من أسلوب ابن الخطيب السياسي .

واستولى المسلمون على ما فيها من الأقوات والنعم . ثم غزوا مدينة ألبده وخربوها . وفي سنة ٧٧٠هـ غزا المسلمون الجزيرة الخضراء ، وكانت بيد النصارى ، واقتحموها بعد معركة طاحنة . وفي العام التالي سار المسلمون إلى أحواز إشبيلية عاصمة قشتالة وعاثوا فيها (١) ، وضربوا الحصار حول قرطبة واقتحموا أسوارها ، وكادت تسقط في أيديهم . وهكذا ظهرت المملكة الإسلامية في تلك الفترة بمظهر من القوة لم تعرفه منذ بعيد ، وكان عصر الغنى بالله عصرا ذهبيا مليئا بالسؤدد والرخاء والدفعة ، لم تشهده الأمة الأندلسية منذ عصور .

ولما توفي الغنى بالله سنة ٧٩٣هـ (١٣٩١م) خلفه ولده يوسف أبو الحجاج (يوسف الثاني) ، وقام بأمر دولته خالد مولى أبيه ، فاستبد بالأمر وقتل إخوة يوسف الثلاثة سعد ومحمد ونصر في محبسهم ؛ ثم سخط يوسف على وزيره وقتله لما نعى إليه من أنه يحاول اغتياله بالسم بالتفاهم مع طبيبه يحيى بن الصائغ اليهودي ، وزج الطبيب إلى السجن ثم قتل بعد ذلك (٢) . واستأثر يوسف بالسلطة ، وكتب إلى ملك قشتالة في طلب المهادنة والسلام ، وأطلق سراح عدد من الفرسان النصارى الذين أسروا في بعض المعارك السابقة ، وأرسلهم مكرمين إلى بلاط إشبيلية ، فاستجاب ملك قشتالة إلى دعوته وعقد السلم بين المملكتين .

وحاول محمد ولد السلطان يوسف الثورة ضد أبيه ، إذ كان يؤثر أخاه الأكبر يوسف بمحبته وثقته ، وقد اختاره لولاية عهده ، وزحف بالفعل في أنصاره على الحمراء ، ولكن المحاولة فشلت ، وتفرق الثوار حين برز إليهم سفير مراکش وقد كان وقتئذ بالقصر ، وأنبهم على "مسلكهم ، ونصحهم بالتزام الهدوء والاتحاد ضد النصارى" (٣) . وقام المسلمون في عهد يوسف بالإغارة على أراضي النصارى في أحواز مرسية ولورقة ، وعاث الفرسان النصارى من جانبهم في فحص غرناطة (المرج) La Vega فردهم المسلمون وأوقعوا بهم هزيمة شديدة . ثم عاد الفريقان إلى التهادن والسلم .

(١) الاطحة ج ٢ ص ٥٤ — ٥٨ .

(٢) الاستقصاء ج ٢ ص ١٤٢ .

(٣) Condé: Historia de la Dominacion de los Arabos en Espagna; Eng. tr.V. III. p.295

وتوفي السلطان يوسف في أوائل سنة ٥٧٩٧ (١٣٩٤م) بعد حكم قصير لم يدم سوى ثلاثة أعوام وبضعة أشهر . وقيل إنه توفي مسموما على أثر مكيدة دبرها سلطان المغرب المريني لإهلاكه . وذلك بأن أرسل إليه هدايا بينها معطف جميل منقوع في السم ، فلبسه يوسف ومسه أثناء ركوبه وهو عرقان - فسرى إليه السم وتوفي ، وهي رواية تحمل طابع الخيال المغرق (١) .

وخلف يوسف ولده محمد بعد أن دبر أمره مع الزعماء ورجال الدولة لإقضاء أخيه الأكبر يوسف عن العرش ، ثم قبض على أخيه يوسف وزجه إلى قلعة شلوبانية الحصينة على مقربة من مالقة ، وشدد في الحجر عليه حتى يأمن منازعته إياه على الملك . وكان محمد وافر العنف والجرأة بعيد الاطماع ، بيد أنه كان في الوقت نفسه أميرا موهوبا ، رفيع اللال فياض العزم والشجاعة . ولأول ولايته استدعى الوزير أبا عبد الله بن زمرك لحجابه . وكان هذا الوزير الطاغية قد خلف أستاذه ابن الخطيب في وزارة الغني بالله مدى أعوام طويلة ، فاما اشتد عيئه واستبداده نكبه الغني بالله ونفاه من الحضرة ؛ ولم يمكث في الوزارة هذه المرة سوى أشهر قلائل أساء فيها السيرة وكثر خصومه ، وفي أواخر سنة ٥٧٩٧ (١٣٩٥م) دهمه جماعة من المتأمرين بمنزله وقتلوه وآله (٢) .

وسعى السلطان محمد إلى تجديد صلات المودة والتهادن بين غرناطة وقشتالة ، وعقدت الهدنة فعلا بين الفريقين . بيد أنه لم يمض قليل على ذلك حتى أغار القشتاليون على بسائط غرناطة وعاثوا فيها ، فحشد محمد قواته وغزا ولاية الغرب (٣) وخربها ، واستولى على حصن أيامونت ، وعاد مثقلا بالغنائم والسبي . وانتقم النصراري بالعود إلى غزو أراضي غرناطة . وكان هنري الثالث ملك قشتالة تحديه نحو مملكة غرناطة أطماع عظيمة ، وكان يجد في الأهبة للحرب ويجهز الجيوش والأساطيل ، وكان محمد من جانبه يتأهب للدفاع ، ويراسل ملوك العدو لإنجاده ؛ وبعث ملك

(١) Conde: ibid; V.III. p.297 ، وراجع الاستقصاء حيث يردد هذه الرواية نقلا عن مصدر

إسباني آخر ج ٢ ص ١٤٢ .

(٢) نفتح الطيب ج ٤ ص ٢٨٦ و ٢٩٠ ، وقد عرضنا إلى حياة الوزير ابن زمرك وآثاره الأدبية

تفصيلا في الكتاب الرابع .

(٣) غربي الأملس وهي بالأفريقية Algarve محرفة عن الغرب .

تونس وتلمسان بالفعل إلى المسلمين نجدة من الوحدات البحرية ، ولكنها هزمت ومزقت تجاه جبل طارق . ثم توفي هنري الثالث ملك قشتالة بعد ذلك بقليل (سنة ١٤٠٦ م) وخلفه ولده يوحنا طفلاً تحت وصاية أمه وعمه فرديناند . ومضى الوصي الجديد في تنفيذ مشاريع قشتالة بمنتهى القوة والعزم ، فسار إلى غزو أراضي المسلمين ، واستولى على حصن الصخرة على مقربة من رنדה واقتحم حصن باغه (١) ، وعاث في تلك الأثناء واسترد حصن أيامونت من المسلمين . وبادر محمد من جانبه بغزو أراضي قشتالة من ناحية الشرق وعاث في ولاية جيان ، فاضطر فرديناند أن يسير إلى الشرق لإنجاد النصارى ، واستمرت المعارك بين الفريقين حيناً ، ثم انتهت بعقد الهدنة بينهما لمدة ثمانية أشهر (أوائل سنة ١٤٠٨ م) . ولما عاد محمد إلى غرناطة اشتد به المرض ولم يلبث أن توفي وذلك في سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨ م) .

وكانت مملكة غرناطة ترتبط في ذلك الوقت نفسه بمملكة أراجون بصلات المودة والصداقة ، ففي سنة ١٤٠٥ م عتدت بين السلطان محمد وبين مارتن ملك أراجون وولده مارتن ملك صقلية ، معاهدة صداقة وتحالف لتنظيم العلاقات السياسية والمبادلات التجارية الحرة ، والأمان بين الفريقين ، وتعهد كل فريق بأن تكون جميع البلاد والشعور في مملكته مفتوحة أمام تجارة الفريق الآخر ، وأن يقوم كل بمعاونة الآخر فيما عدا ضد حلفائه معاونة عسكرية ، تشمل من جانب أراجون في خمس سفن مشحونة ومساحة ، ومن جانب غرناطة في خمسمائة فارس (٢) .

ولما توفي محمد خلفه في الملك أخوه يوسف ، وكان سجيناً طوال حكمه بقلعة شلوبانية كما قدمنا . ودخل يوسف غرناطة في حفل فخيم واستقبله الشعب بحماسة . وكان يتمتع بخلال حسنة ويعلق عليه الشعب آملاً كبيرة . وكان أول ما عني به أن سعى إلى تجديد الهدنة مع قشتالة ، فاستجاب بلاط قشتالة إلى دعوته في البداية وعقدت الهدنة بين الفريقين لمدة عامين . ولكنه لما سعى بعد مضي العامين إلى تجديدها أبى القشتاليون ، وطلبوا إليه الخضوع لقشتالة إذا شاء استمرار السلم ، وأندروه باعلان الحرب ، فرفض وأخذ في الأهبة للقتال . وكان ملك قشتالة يومئذ

(١) هي بالفرنسية Priego

(٢) Dr. H. Ch. Lea : History of the Inquisition, V. I. p. 55

يورحنا الثاني حدثا تحت وصاية أمه وعمه فرديناند ، فما كادت تنتهي الهدنة حتى زحف النصارى على أرض غرناطة بقيادة فرديناند الوصى وضربوا الحصار حول مدينة أنتكيرة في شمال غربي مالقة ، فهرع يوسف إلى لقاء الغزاة ، وحاولت حامية أنتكيرة أن تحطم الحصار وأزلت بالمحاصرين خسائر فادحة ، ثم نشبت بين المسلمين والنصارى معركة كبيرة بحوار أنتكيرة ، وبذل المسلمون لإنقاذ المدينة المحصورة جهودا رائعة ، ولكنهم هزموا أخيرا واضطرت المدينة الباسلة إلى التسليم ، فدخلها النصارى (سنة ١٤١٢م) وأسنع على فاتحها فرديناند من ذلك الحين لقب « صاحب أنتكيره » . وعاث النصارى بعد ذلك في أراضي المسلمين . وأخيرا رأى السلطان يوسف أن يسعى إلى عقد الهدنة مع قشتالة حقنا لدماء المسلمين ، واجتنابا لاستمرار هذه المعارك المخربة ، فارتضى بلاط قشتالة وعقد السلم بين الفريقين ، على أن يطلق ملك غرناطة سراح بضع مئات من الأسرى النصارى دون فدية .

وفي عهد يوسف ثار أهل جبل طارق ودعوا ملك المغرب أبا سعيد المريني إلى احتلال الثغر لاعتقادهم أنه أقدر على حمايتهم من غارات النصارى ، فبعث إليهم أبو سعيد أخاه عبد الله في الجند تخلصا منه ، ولكن ابن الأحمر ما كاد يقف على هذه المؤامرة حتى أرسل المدد إلى حاكم جبل طارق ، واستطاع الغرناطيون أن يهزموا المغاربة في موقعة حاسمة وأسرو زعيمهم عبد الله ، فأكرم ابن الأحمر وفادته ثم رده إلى المغرب وزوده بالمال وبعض الجند ليناهض أخاه ، فهرعت القبائل لتأييده ، واستطاع أن ينتزع الملك لنفسه من أخيه (١) .

ولما عقدت الهدنة بين مملكتي قشتالة وغرناطة أخذت أوامر السلم تتوثق بينهما ، وسادت بين بلاط غرناطة وبلاط إشبيلية علائق المودة والاحترام المتبادل ، ولم تشهد غرناطة من قبل عهدا كعهد يوسف ساد فيه الوثام بين الأمتين الخصيمتين . وكانت غرناطة يومئذ تغص بالفرسان والأشراف النصارى تجتلبهم خلال أميرها وبهاء بلاطها وفروستها . وكانت حفلات المبارزات الرائعة تعقد بين الفرسان المسلمين والنصارى في أعظم ساحات المدينة ، وتجري طبقاً لأرفع رسوم الفروسية الإسلامية ، ويشهد لها أحمل وأشرف العقائل المسلمات سافرات ، وتبدو غرناطة في تلك الأيام

(١) السلاوى في الاستقصاء ج ٢ ص ١٤٨ ؛ وراجع Scott; ibid; V. II. p. 500

المشهود في أروع الحلل وأبدع الزينات (١). وكانت الأمة الأندلسية تتمتع يومئذ في ظل ملكها الرشيد العادل بنعم الرخاء والسكينة والأمن ، ولكنها كانت تنحدر في نفس الوقت في ظل هذا السلم الخلب والترف الناعم ، إلى نوع من الانحلال الخطر الذي يعصف بمنعتها وأهباتها الدفاعية .

وتوفي السلطان يوسف في سنة ٨٢٧هـ (١٤٢٤م) بعد حكم لم يطل سوى خمسة عشر عاما ، بيد أنها كانت صفحة زاهية في تاريخ مملكة غرناطة .

وتوالى على عرش غرناطة بعد السلطان يوسف عدة من الأمراء الضعاف ، أولهم ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالأيسر . وكان أميراً صارماً سيئ الخلال متعالياً على أهل دولته ، بعيداً عن الإتصال بشعبه ، لا يكاد يبدو في أية مناسبة عامة ، وكان وزيره يوسف بن سراج واسطته الوحيدة للاتصال بشعبه وكبراء دولته ، وكان هذا الوزير النابه وهو يومئذ زعيم أعظم وأشرف بيوت غرناطة ، يعمل ببراعته ورقة خلال له لتلطيف حدة السخط العام على مليكه . بيد أنه كان يحاول أمراً صعباً . ولا بد لنا أن نقول كلمة في التعريف ببني سراج وهم الذين يقترن اسمهم منذ الآن بحوادث مملكة غرناطة ، والذين غدت سيرتهم فيما بعد مستقى خصباً للقصاص المغربي . فهم بنو سراج من أعرق الأسر الأندلسية العربية ، ويرجع أصلهم حسبما يشير المقرئ إلى مندحج وطىء من البطون العربية العريقة التي وفد بنوها إلى الأندلس منذ الفتح ، وكان منزلهم بقرطبة وقبلى مرسية ، بيد أنهم لم يظهروا على مسرح الحوادث في تاريخ الأندلس إلا في مرحلته الأخيرة أعني في تاريخ غرناطة ، وقد كانوا بغرناطة من أعظم ساداتها ، وكانوا أندادا للعرش والسلاطين (٢). ومنذ عهد السلطان الأيسر

(١) Condé; ibid. V. III. p. 309

(٢) راجع نصح الطيب ج ١ ص ١٣٨ حيث يشير إلى أصل بني سراج إشارة عابرة . وقد ذكر البعض أن بني سراج ينتمون إلى يوسف السراج وأن السراج هذا هو وزير السلطان الأيسر . ولكن إشارة المقرئ الصريحة إلى الاسم والمنبت تنفي هذا التحريف في الاسم . ويشغل بنو سراج في الأساطير الإسبانية التي كتبت عقب سقوط غرناطة فراغا كبيرا ، مما يدل على ما كان لهم في غرناطة من عظيم الشأن . وسنعود إلى ذكر هذه القصص والأساطير فيما بعد . راجع المستشرق سيبولد في Lane-Poole; History of the Moors. p. 274 وكذلك Encyc. de l'Islam تحت كلمة Abencerrages وكذلك Lane-Poole; History of the Moors. p. 274

نرى بنى سراج فى طليعة القادة والزعماء ، الذين يأخذون فى سير الحوادث بأعظم نصيب . وقد كان حكم السلطان الأيسر بداية سلسلة من الاضطرابات والقلاقل المتعاقبة . وفى عهده ساءت الأحوال ، واشتد سخط الشعب ولم تجد محارلات الوزير ابن سراج لتمهيد الأمور . وقامت ثورات متعاقبة فقد فيها الأيسر عرشه ثم استرده غير مرة ، وكان بلاط قشتالة يشجع هذه الانقلابات ويؤازرها ، وكان الزعماء الثائرون يتطلعون دائماً إلى عون قشتالة ووحيا . وسرى فيما يلى كيف كانت دسائس قشتالة ومؤامراتها حول عرش غرناطة فى تلك الفترة ، من أعظم العوامل فى انحلال المملكة الإسلامية والتعجيل بسقوطها .

ولم تمض أعوام قلائل من حكم الأيسر حتى عاد النصارى إلى غزو مملكة غرناطة ، فزحفوا عليها فى سنة ٨٣٢هـ (١٤٢٨م) وتوغلوا فى أرجائها ، وعاثوا فى بسائط وادى آش ، فزادت الأمور فى غرناطة اضطراباً وازداد الشعب على الأيسر سخطاً ، لأنه فوق غطرسته وتعاليه ، لم يفلح فى رد العدو عن أرض الوطن ؛ وسرعان ما انفجر بركان الثورة وزحف الثوار على الحمراء ، ونادوا بولاية أمير من أبناء عمومة الأيسر ، هو محمد الملقب « بالزغير » . وفر الأيسر فى أهله ونفر من خاصته ، وركب البحر إلى تونس مستظلاً بحماية سلطانها أبى فارس الحفصى .

وجلس محمد الزغير (١) على عرش غرناطة . وكان أميراً بارع الحلال وافر الفروسية ، يعشق الآداب والفنون ، وكان يحاول اكتساب محبة الشعب بفيض من الحفلات ومباريات الفروسية ، ولكنه لم يوفق إلى اخماد الدسائس والفتن المستمرة . وكان بنو سراج ألد خصومه وأشدهم مراساً ، قال عليهم وطاردهم وعول على سحقهم ، واستتصال نفوذهم القوى المتغلغل فى أنحاء المملكة ؛ وغادر يوسف ابن سراج غرناطة مع عدد كبير من السادة والفرسان من أفراد أسرته تفادياً لانتقام الزغير وبطشه ، وسار أولاً إلى ولاية مرسية ثم سار إلى إشبيلية ملتجئاً إلى حماية ملك قشتالة يوحنا الثانى ، فرحب بهم وأكرم وفادتهم . واتفق يوسف بن سراج مع ملك قشتالة على العمل لرد السلطان الأيسر إلى العرش ، واستدعى الأيسر من

(١) زغير وهى النطق العامى لكلمة (صغير) Dozy : Supp. aux Dict. arabes, V. I. p. 595

وذكر كوندى أن الزغير Zaquir معناها السكر Condé: ibid; V. III. p. 311

تونس فلبى الدعوة ، وزوده السلطان أبو فارس بفرقة من الفرسان وهدايا ثمينة للملك قشتالة ، ونزل الأيسر في عصبته في ثغر ألمرية ، حيث استقبله الشعب بحفاوة ، ونودي به ملكا . ونعى الخبر إلى الزغير ، فأرسل بعض قواته لمقاتلة الأيسر والقبض عليه ، ولكن معظم جنده انضموا إلى الأيسر ؛ وسار الأيسر بعد ذلك إلى وادي آش حيث يحتشد أنصاره ، ثم زحف على غرناطة في قوة كبيرة ؛ ورأى محمد الزغير أنصاره ينفضون من حوله تباعا ، بيد أنه امتنع في عصبته القليلة بقلعة الحمراء معتزما الدفاع عن ملكه . ودخل الأيسر غرناطة واستقبل بحماسة وأعلن ملكا ، وحاصر الحمراء بشدة فسلمها إليه أنصار الزغير ؛ وقبض على الزغير وقطع رأسه ، وقبض على أولاده وأهله . وهكذا انتهت مغامرة الزغير على هذا النحو المؤسي بعد أن حكم عامين وبضعة أشهر (سنة ١٤٣٠ م) (١).

ونظم السلطان الأيسر الأمور ، وأعاد يوسف ابن سراج إلى الوزارة ، وأرسل إلى ملك قشتالة يوحنا الثاني في تجديد الهدنة ، فاشترط لتجديدها أن يؤدي الأيسر ما انفقه بلاط قشتالة في سبيل استرداد عرشه ، وأن يؤدي فوق ذلك جزية سنوية اعترافا بالطاعة ، فرفض الأيسر وهدد ملك قشتالة بالحرب . وما كادت تنهى الفتنة الداخلية التي كانت يومئذ ناشبة في قشتالة ، حتى أغار النصارى على أراضي المسلمين ، وقصدوا إلى زندة ، فهرع الأيسر إلى لقاءهم واستطاع أن يردهم في البداية ، ولكن ملك قشتالة قدم بعدئذ بنفسه في قوات كبيرة ، وزحف على حصن اللوز وأرشدونه ، وعاث في تلك المنطقة ، ثم عاد إلى قرطبة ومعه كثير من السبي والغنائم .

وفي أثناء ذلك عاد الأيسر إلى غرناطة متوجسا من سير الحوادث فيها . وكانت الفتن الداخلية قد عادت تنذر بانقلابات جديدة ، وغدا عرش غرناطة مرة أخرى يضطرب في يد القدر ؛ وانقسمت المملكة الإسلامية شيئا وأحزابا متنافسة متخاصمة ، وألنى النصارى فرصتهم السانحة لإذكاء الفتنة وبسط سيادتهم على مملكة يسودها الضعف والتفرق ، وكان خصوم الأيسر قد التفتوا حول يوسف ابن الأحمر ، وهو أمير من أعقاب بيت الملك ، ودبرت مؤامرة جديدة لخلع الأيسر .

وكان يوسف أميراً قوياً ، وافر الثراء والهيبة ، فأرسل إلى ملك قشتالة يطلب إليه العون ، ويتعهد بأن يحكم باسمه وفي طاعته ، فاستجاب إليه ملك قشتالة ، وأرسل جنده فغزت مرج غرناطة ، وسار الأيسر على رأس قواته والتي بالنصارى في بسائط إلبيرة ، ونشبت بين الفريقين موقعة هائلة ، ارتد الأيسر على أثرها منهزماً إلى غرناطة . أما يوسف فقد استطاع بمؤازرة النصارى أن يستولى على عدة قواعد اعترفت بطاعته ، مثل زادة ولوشة وحصن اللوز وغيرها . وأعلن ملك قشتالة انحيازه إلى يوسف ونودى به ملكاً ، وتعهد يوسف أن يحكم باسم ملك قشتالة ، وأن يؤدي له جزية سنوية ، وأن يحضر مجلس الكورتيس (مجلس النواب الاسباني) باعتباره تابعا لعرش قشتالة . وسار يوسف بعد ذلك في قواته إلى غرناطة فلقبته جنود الأيسر بقيادة الوزير ابن سراج فهزم ابن سراج وقتل ، ودخلت جنود يوسف العاصمة ، ونادت بطاعته معظم الجهات ، وانفض الأشراف من حول الأيسر بعد أن رأوا خسران قضيته ، فاعتزم الأيسر أمره وحمل أمواله وغادر غرناطة في أسرته ونفر من خاصته ، وقصد إلى مالقة التي بقيت على طاعته ، ودخل يوسف بن الأحمر العاصمة ظافرا وتربع على العرش (١٤٣٦ م) .

ولكن أمد حكمه لم يطل إذ كان شيخا مريضا ، فتوفي بعد ستة أشهر لم يفعل خلالها شيئا سوى اعترافه بطاعة ملك قشتالة . وعندئذ اتفقت الأحزاب كلها على رد السلطان الأيسر ، فجلس على العرش للمرة الثالثة ، وبادر بالسعي إلى عقد السلم مع ملك قشتالة ، فمقدت بين الفريقين هدنة قدرها سنة ، ولكن القشتاليين مالبثوا بالرغم من عقدها أن أغاروا على أراضي غرناطة الشرقية ، فردهم المسلمون بقيادة الوزير ابن عبد البر ، ثم هزمهم ثانية عند مدينة أرشدونة ، وقتل وأسر منهم عدد كبير (١٤٣٧ - ١٤٤٠ هـ) .

وفي العام التالي سار السلطان الأيسر لقتال القشتاليين في أحواز غرناطة ووادي آش وهزمهم غير مرة . ثم عاد النصارى فأغاروا على بسطة ووادي آش ، واحتلوا بعض الحصون والقرى المجاورة ، وزحفت قوة كبيرة من النصارى بقيادة حاكم لبله على ثغر جبل طارق ، ولكن أهل الثغر باغثوا النصارى وهزمهم ، وقتل قائدهم وكثير منهم (١٤٤٣ - ١٤٣٩ م) ونشبت في الوقت نفسه بين

المسلمين والنصارى موقعة أخرى على مقربة من كازورلا ، أصيب الفريقان فيها بخسائر فادحة ، وانتهت بنصر المسلمين ، ولكن قائدهم الفارس ابن سراج وهو ولد الوزير السابق ، سقط قتيلًا في الموقعة ، فحزنت غرناطة لفقده ، وقد كان يجلب الشعب الغرناطي بظرفه وبارع فروسته .

وهكذا استمر الصراع بضعة أعوام سجالًا بين المسلمين والنصارى . ولما رأى النصارى كثرة خسائرهم وعقم محاولاتهم ، لجأوا إلى السكينة حينًا . ولكن حوادث غرناطة كانت عندئذ تنذر بتطورات جديدة مزعجة . ذلك أن السلطان الأيسر لم يحسن السيرة ، ولم ينجح في اجتذاب شعبه ، وكان فريق من خصومه من السادة والفرسان يلوذ بحماية ملك قشتالة ، وعلى رأسهم الأمير سعد بن اسماعيل حفيد السلطان يوسف وابن أخى الأيسر ، وكان ثمة فريق آخر من الزعماء الخوارج في ألمرية يناصر ولد أخيه الآخر محمداً الأحنف (١) . وكان الأحنف قد نجح في دخول غرناطة سرا مع نفر كبير من أنصاره وأخذ يعمل على اذكاء الفتنة . فلما آنس سنوح الفرصة ، ثار في عصيته واستولى على الحمراء والحصون المجاورة لها ، وقبض على الأيسر وآله وزجهم إلى السجن ، ونادى بنفسه ملكًا . ولكن الفتنة لم تهدأ ولم تستقر الأمور . وكان يعارض ولاية الأحنف فريق قوى من الزعماء والشعب ، ويتزعم هذا الفريق المعارض الوزير ابن عبد البر . وكان يقيم في حصن مونتفريو في شمال غربي غرناطة ، ويؤيد ولاية الأمير سعد بن اسماعيل المقيم في بلاط قشتالة . ولم يمض قليل حتى سار الأمير سعد من إشبيلية إلى غرناطة ومعه سرية من الفرسان النصارى أمده بها ملك قشتالة . ورد السلطان الأحنف من جانبه بأن غزا أراضي النصارى ، وهاجم قلعة بني موريل وقلعة ابن سلامة ، وقتل من فيهما من النصارى (١٤٤٨ م) . وسير في الوقت نفسه جزءاً من قواته لمقاتلة خصمه ابن اسماعيل ، وانتهز الأحنف فرصة الخلاف القائم يومئذ بين أراجون وقشتالة فأرسل إلى ملك أراجون يعرض محالفته ضد قشتالة ، ونفذ هذا الحلف بأن غزا الأحنف أرض النصارى من ناحية أراضي مرسية ، والتقى بالقشتاليين قرب جنجاله وهزمهم

(١) يسمى كوندى محمداً الأحنف بالسلطان ابن عثمان ؛ وربما كان عثمان اسم أبيه

(Condé: ibid; p. 328.)

هزيمة شديدة (١٤٥٠م). ثم عادت قواته تكرر الإغارة والعيث في أرض النصارى وتشغل قواتهم. وكان ابن اسماعيل يقيم أثناء ذلك في حصن مونترفريو، وقد أقرت بطاعته بعض البلاد والحصون المجاورة. وهكذا اتسع نطاق النضال، وعصفت الحرب الأهلية من جهة، وغزوات النصارى من جهة أخرى بقوى غرناطة. وكان السلطان الأحنف بالرغم من عزمه وقوة نفسه، يثير غضب الشعب بطغيانه وقسوته وعنفه، وكانت معظم الأسر الكبيرة تعمل لإسقاطه لما لقيت من بطشه وعدوانه، وهكذا تهيأ الجو لانقلاب جديد. وعاد ملك قشتالة بعد أن سوى خلافه مع أراجون إلى التدخل في شئون غرناطة، فزود ابن اسماعيل ببعض قواته؛ وسار الأحنف لقتال منافسه، ونشبت بين الفريقين في ظاهر غرناطة معركة شديدة انتهت بهزيمة الأحنف وفراره؛ ودخل ابن اسماعيل غرناطة، وجلس على العرش، وكان ذلك في سنة ١٤٥٤هـ (١٤٥٤م) (١).

وكان السلطان ابن اسماعيل أميراً عاقلاً حازماً عادلاً، محباً للإصلاح والأعمال الإنشائية، فعكف على ضبط الأمور وتوطيد الأمن، وإقامة الأبنية وتحصين القواعد والثغور. وكان فارساً بارعاً يشترك بنفسه أحياناً في مباريات الفروسية. ولأول عهده أرسل إلى ملك قشتالة يوحنا الثاني يؤكد طاعته، وساد السلم لفترة قصيرة بين المسلمين والنصارى. ولكن يوحنا الثاني توفي بعد أشهر قلائل، وخلفه ولده هنري الرابع. وأبى ابن اسماعيل أن يعترف بحماية ملك قشتالة الجديد، محاولاً بذلك أن يكتسب الشعب إلى جانبه، وأن يوطد مركزه؛ وسير بعض قواته في نفس الوقت فأغارت على الأراضي القشتالية، وأصر ملك قشتالة من جانبه على وجوب خضوع ملك غرناطة وطاعته، واعتزم أن يتابع الضغط على المملكة الإسلامية الصغيرة دون هوادة، فسار إلى أراضي غرناطة في جيش ضخم وعاث فيها، وانتسف المروج والضياع، وقتل وسبي من أهلها جمعاً كبيراً، ولقيه المسلمون في قوات صغيرة أنزلت بجيشه خسائر كبيرة. وعاد القشتاليون في العام التالي إلى عيهم في أراضي المسلمين، وغزا المسلمون من جانبهم منطقة جيان وأوقعوا هنالك بالنصارى، واستمرت هذه المعارك مدى حين سجالات بين الفريقين. وكان النصارى قد استولوا في تلك الفترة

المضطربة من حياة المملكة الإسلامية ، على عدة من القواعد والثغور الإسلامية ، بعضها اختياراً بتنازل سلاطين غرناطة والبعض الآخر بالفتح . وكانت أعظم ضربة أصابت مملكة غرناطة في عهد السلطان ابن اسماعيل ، سقوط ثغر جبل طارق في يد النصارى . ففي سنة ١٤٦٢ م سارت إليه قوة من النصارى بقيادة الدوق مدينا سيدونيا واستولت عليه بطريق المفاجأة . وكان سقوط هذا الثغر المنيع في يد النصارى أول خطوة ناجحة في سبيل قطع علائق مملكة غرناطة بعدوة المغرب ، والحول دون قدوم الأمداد إليها من وراء البحر .

على أن خطر الفورات الإسلامية القوية فيما وراء البحر ، كان قد خبا منذ بعيد . وأخذت دولة بني مرين القوية تجوز مرحلة الإنحلال والسقوط ، وكان آخر ملوكهم السلطان عبد الحق ، قد خلف أباه السلطان أبا سعيد المريني في سنة ٨٢٣ هـ (١٤١٥ م) . وفي عصره ساد الاضطراب والتفكك في أنحاء المملكة ، واستبد وزيره يحيى بن يحيى الوطاسي بالدولة . وكان بنو وطاس ينتمون إلى بطن من بطون بني مرين ، وينافسونهم في طلب الرياسة والملك ؛ فلما اشتدت وطأتهم على السلطان عبدالحق ، بطش بهم وقتل معظم رؤسائهم ، وفي مقدمتهم وزيره يحيى ، ونجا البعض منهم وتفرقوا في مختلف الأنحاء . وأسلم عبد الحق زمام دولته إلى اليهود فبغوا وعاثوا في الدولة ؛ وغضب الشعب على مليكه ، واضطربت الثورة ، وعزل عبد الحق وقتل (٨٦٩ هـ - ١٤٦٤ م) ، وانتهت بمصرعه دولة بني مرين بعد أن عاشت زهاء مائتي عام ؛ واستولى على تراث بني مرين وملكهم ، بنو وطاس خصومهم القدماء ، واستطاع زعيمهم محمد الشيخ أن يستولى على فاس في سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧١ م)^(١) وبذا قامت بالمغرب دولة فنية جديدة ؛ بيد أنها لم تكن من المنعة والقوة بحيث تستطيع الإقدام على عبور البحر إلى الأندلس ، في سبيل الجهاد والنجدة ، أسوة بما كانت تعمله دولة بني مرين القوية الشاححة .

وهكذا كانت الأمة الأندلسية تشعر بأنها أصبحت فريدة في مواجهة عدوها القوي دون حليف ولا ناصر . ولم ير سلطان غرناطة بعد أن أضناه النضال ، بدأ من قبول ما فرضه عليه ملك قشتالة من الاعتراف بسلطانه ، وتأدية الجزية اغتناماً

(١) راجع الاستقصاء ج ٢ ص ١٤٨ و ١٥٠ و ١٥١ و ١٦٠ .

للمهادنة والسلام . وكانت مملكة غرناطة تجوز في هذه الآونة العصبية ذاتها مرحلة من الإضطراب الداخلي ، وكان من أهم أسباب هذا الاضطراب الخطر ، اضطرام المنافسة بين العرش وبين الأسر النبيلة القوية ، مثل بني سراج وبني أضحي وبني الثغرى وغيرهم (١) ، واضطرام المنافسة فيما بين هذه الأسر القوية ذاتها ، وغلبة نفوذ النساء في البلاط . وكان من أثر ذلك أن حدثت في سنة ١٤٦٢ م فتنة خطيرة من جراء محاولة السلطان ابن اسماعيل أن يقضى على نفوذ بني سراج أقوى هذه الأسر وأعرقها . وهكذا كانت نذر التفكك تعمل عملها المشؤم (٢) . ومع أن غرناطة تمتعت بمزايا الهدنة الخادعة التي عقدها مع قشتالة حتى وفاة السلطان ابن اسماعيل في سنة ٨٧١ هـ (١٤٦٦ م) فقد كان من الواضح أن المملكة الإسلامية كانت تنحدر سراعاً إلى مصيرها الخطر ، وتواجه شبح الإنحلال الأخير .

* * *

وفي ذلك الحين بالذات استولى محمد الفاتح عاهل الترك العثمانيين على قسطنطينية (سنة ١٤٥٣ م) وانهار هذا الصرح المنيع ، الذي كان يحمي أوروبا النصرانية من جهة الشرق ، من غزوات الإسلام ، وانساب تيار الفتح العثماني إلى جنوب شرقي أوروبا ، يكتسح في طريقه كل مقاومة ، وروعت أوروبا النصرانية لهذا

(١) بنو أضحي أو بنو ضحي من سادة غرناطة ، وقد ذكرهم ابن الخطيب في الاطحة مع من ذكر من الأسر الغرناطية ، ولكننا لم نعثر في الرواية الإسلامية على أية إشارة تلقي ضوءاً على أصل بني الثغرى وهم الذين يسمون في الرواية النصرانية (Zegris) . ويقول المستشرق الإسباني جاينجوس مترجم نفتح الطيب إن التسمية الفرنجية هي تحريف لكلمة الثغريين وهم الذين نزحوا من أراجون أو الثغر الأعلى (مملكة سرقسطة) الى غرناطة بعد سقوطه في يد النصارى (Mohamedan Dynasties in Spain; V. II. p. 541 & Alhambra; Intr. p. 15 Note) وهو تعليل حسن ويؤيده نطق حرف ال Z في الكلمة الأفرنجية فهو ينطق في الإسبانية ثاء . وقد كانت كلمة الثغرى فيما يبدو صفة أو لقباً لكثير من الأسر النازحة من الثغر الأعلى (أراجون) الى مختلف أنحاء الأندلس ولاسيما منذ القرن السادس الهجري . ولهذا نجد عدداً من الزعماء يحمل هذا اللقب (راجع الحلة السيرة لابن الأبار ص ٢١٧ و ٢١٨) . على أن هذا التعليل لا يكشف لنا لقب الأسرة الحقيقي وإنما ينصرف الى الصفة والشهرة . وهناك ما يدل على أن آل الثغرى كانوا من البربر ومن قبيلة غمارة ؛ وقد كانت لهم كما سنرى مواقف مشهودة في حرب غرناطة الأخيرة .

(٢) يرى المستشرق جاينجوس أن منافسات بني سراج وبني الثغرى ، كانت من أهم أسباب

التعجيل بسقوط غرناطة Gayangos: ibid; V. I. p. 315

الخطر الحديد الذي يهدد حريتها وسلامها ، وأخذت النزعة الصليبية تضطرم من جديد بقوة مضاعفة . وتردد هذا الصدى في اسبانيا النصرانية ، حيث كانت مملكة غرناطة ما تزال بالرغم من صغرها وضعفها ، تمثل صولة الإسلام القديمة في اسبانيا ، وقد تغدو في الغرب نواة لهذا الخطر الإسلامي الداهم ، الذي بدت طلائعه في الشرق على يد الغزاة الترك ، ومن ثم فقد كان طبيعياً أن تجهش اسبانيا النصرانية بفورة صليبية جديدة ، وأن يدركي هذا الخطر الحديد ، اهتمامها بالقضاء على مملكة غرناطة . وبالرغم مما كانت تجوزه مملكة غرناطة يومئذ من فن داخلية ، وما كان يفت في قواها من عوامل الإنحلال السياسي والاجتماعي ، فقد كانت تعتبر دائماً في نظر اسبانيا النصرانية عدواً داخلياً له خطره . وكان أشد ما تخشاه اسبانيا النصرانية أن تغدو غرناطة قاعدة لفورة جديدة من الغزو الإسلامي تنساب من وراء البحر ، كما حدث في الحقبة الأخيرة غير مره . والحقيقة أن حياة هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، قد استطلت أكثر مما كانت تقدره اسبانيا النصرانية . وكانت مملكة قشتالة في تلك الآونة بالذات تشغل بمنازعاتها الداخلية ، ومضى زهاء ربع قرن آخر قبل أن تتحد اسبانيا النصرانية في مملكة قوية موحدة . وقد كانت خلال الأحداث التي توالى عليها في تلك الفترة تجهش دائماً بنزعتها الصليبية الماثورة . فلما تحققت الوحدة ، واستقرت الأحوال واجتمعت الموارد ، أخذت فرصة القضاء الأخير على المملكة الإسلامية الصغيرة ، تبدو لخصيمتها القوية اسبانيا النصرانية في الأفق قوية سانحة .

الفصل التاسع

تاريخ اسبانيا النصرانية

منذ قيام مملكة غرناطة حتى اتحاد مملكتي قشتالة وأراجون

الفونسو العاشر ملك قشتالة . مشاريعه نحو مملكة غرناطة . الحرب الأهلية في قشتالة . ولاية سانشو الموحش . الخلاف بينه وبين النبلاء . عقد الهدنة بين غرناطة وقشتالة . ولاية فرديناند الرابع ووصاية أمه . اضطراب الأحوال في قشتالة . توطد مركز فرديناند . غزو القشتاليين لأراضي الأندلس . استيلاؤهم على جبل طارق . ولاية الفونسو الحادي عشر والوصاية عليه . زحف القشتاليين على غرناطة . هزيمتهم ومقتل زعمائهم . طغيان الفونسو وعبثه . عبور سلطان المغرب الى الأندلس . هزيمة المسلمين . غزو القشتاليين للجزيرة الخضراء . حصار جبل طارق وفشل النصارى . ولاية بيدرو القاسى . طغيانه وعنفه . الحرب الأهلية في قشتالة . انتصار الكونت هنرى وارتقاؤه العرش . ازدهار قشتالة في عهده . ولاية يوحنا الأول . الخلاف بينه وبين البرتغاليين . مصرعه وولاية ولده هنرى الثالث . توطد السلام والأمن في عهده . ولاية يوحنا الثانى والوصاية عليه . ضعفه وهو . فرديناند الوصى يدعى لولاية عرش اراجون . الصراع بين يوحنا والأشراف . التهادن بين قشتالة وغرناطة . ولاية هنرى الرابع . اضطراب الأحوال في عصره . استيلاء القشتاليين على جبل طارق . بيدرو الثالث ملك اراجون . النزاع حول عرش نابل . افتتاحه لصقلية . الفونسو الثالث . ضغط النبلاء عليه . جايم الثانى . الاستقرار في عهده . الفونسو الرابع . طغيان النبلاء وامتيازاتهم . بيدرو الرابع . الحرب الأهلية بين العرش والنبلاء . استيلاء بيدرو على الجزائر الشرقية . استرداده لصقلية . ولاية يوحنا الأول . ولاية مارتن الأول . الصداقة بين اراجون وغرناطة . وفاة مارتن وجلسوس فرديناند صاحب انتكيره على العرش . حكمه المطلق . ولده الفونسو الخامس . افتتاحه لمملكة نابل . أخوه يوحنا يحكم اراجون . ازدهار مملكة نابل . ولاية يوحنا الثانى لعرش اراجون . الحرب الأهلية في اراجون . الحرب بين اراجون وفرنسا . وفاته وولاية ولده فرديناند . عود الى تاريخ قشتالة . النزاع حول العرش بعد وفاة هنرى الرابع . أخته الاميرة ايزابيلا . قصة زواجها من فرديناند الأراجونى . معارضة أخيها هنرى . موافقتها على

هذا الزواج . شروط الزواج وعقده . اعلان ولاية ايزابيلا عقب وفاة أخيها . خوانا ابنة الملك هنرى . مشروع زواجها من ملك البرتغال . غزو ملك البرتغال لقشتالة . ارتداده وفشل مشروعه . ارتقاء فرديناند عرش اراجون . اتحاد مملكتى قشتالة و اراجون . اسبانيا النصرانية الموحدة . فرديناند الكاثوليكي وصفاته وخلالاه . ايزابيلا الكاثوليكية وصفاتها وخلالها . انحلال مملكة غرناطة . عزم فرديناند وايزابيلا على القضاء عليها .

١ — قشتالة

لما توفى فرديناند الثالث ملك قشتالة فى سنة ١٢٥٢م ، خلفه فى الملك والده الفونسو العاشر الملقب بالعالم أو الحكيم El Sabio لاشتغاله بالعلوم ولاسيما الفلك حسبما أشرنا من قبل . وشغل الفونسو بالشئون والإصلاحات الداخلية ولاسيما الإصلاحات التشريعية . وكان المجتمع الإسبانى فى هذا العصر يشعر بحاجة شديدة إلى تشريعات تتفق مع تطوراته ، وتقضى على ما كان يعتوره من شذوذ فى تكوينه ، وتحد من طغيان الأشراف والسادة ، وتلطف من حدة التنافس والبغضاء بين الطوائف . وقد رأينا أن چايم الفاتح ملك أراجون كان فى الوقت نفسه يظطلع فى مملكته بمثل هذا الدور الإصلاحى الهام . وكان الفونسو تحذوه أطماع إمبراطورية ضخمة ، إذ كان يطمح إلى تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وذلك بسبب انحداره من أم المانية من آل هوهنشتاوفن هى ابنة الإمبراطور فيليب ، وقد انفق فى سبيل هذا المشروع الخيالى أموالا طائلة ، واضطر لحاجته إلى المال أن يصدر نقدا زائفا ، وأن يتخذ اجراءات ، كان لها أسوء الأثر فى سير الأحوال الإقتصادية .

وكان الفونسو بالرغم من اشتغاله بالشئون الداخلية ، يجرى على خطة أسلافه فى متابعة غزو الأراضى الإسلامية . وفى أوائل عهده استطاع أن ينتزع مدينة قادس من سكانها المسلمين بمعاونة حليفه ابن الأحمر صاحب غرناطة . بيد أن أمير غرناطة محمداً الفقيه ، لما شعر بعد ذلك بما يدبره ملك قشتالة من خطط للقضاء على المملكة الإسلامية ، عبر البحر إلى المغرب يطلب الغوث والعون ، من السلطان أبى يوسف يعقوب المنصور . وقد رأينا فيما تقدم كيف استجاب المنصور إلى صريخ الأندلس ، وعبر البحر إلى اسبانيا غير مرة واثنى فى جيوش قشتالة . وفى أواخر عهد الفونسو العاشر ساءت الأحوال فى قشتالة ، وثار الأشراف

على العرش ، لمحاولة أن يقضى على سلطانهم وامتيازاتهم . ثم خرج على الفونسو ولده سانشو منادياً بحقه فى العرش وكونه أولى من ولد أخيه المتوفى المرشح لولاية العهد . واضطرت فى قشتالة حرب أهلية خسر فيها الفونسو عرشه ، والتجأ إلى السلطان أبى يوسف فأمدّه بالمال والجند حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . واستمرت الحرب الأهلية بين الفونسو وولده سانشو ، حتى توفى الفونسو فى سنة ١٢٨٤م فى إشبيلية ، منبوذا مهزوما ، وبذلك انتهت الحرب الأهلية فى قشتالة .

واستمر ولده سانشو الملقب بالمتوحش El Bravo على عرش قشتالة مدى حين بلا منازع ، ولكنه لم يلبث أن اختلف مع النبلاء الذين آزره ضد أبيه من قبل ومع اخوته الأصغر ، وكذلك مع أبناء أخيه الأكبر فرناندو الذى توفى قبل وفاة أبيه ، وثار حول عرش قشتالة من جديد منازعات واضطرابات لانهاية لها . وعمد سانشو إلى الدس والغيلة للتخلص من خصومه ، وأبدى فى مطاردتهم قسوة متناهية ، ومن ثم كان تلقيبه « بالمتوحش » . وفى تلك الفترة التى اضطربت فيها شئون قشتالة ، آثر سانشو أن يستجيب إلى عقد السلام مع مملكة غرناطة ، وكان ابن الأحمر من جانبه يتوق إلى عقد مثل هذه الهدنة مع قشتالة ، لما كان يساوره من جزع من جراء تدخل سلطان المغرب أبى يوسف المنصور فى شئون الأندلس ، بصورة خشى معها على سلطانه حسبما فصلنا فى موضعه ، وعلى ذلك تمتعت غرناطة ببضعة أعوام من السكينة والسلام .

ولما توفى سانشو فى سنة ١٢٩٦م ، خلفه ولده فرديناند (الرابع) طفلاً فى السادسة من عمره ، وتولت الوصاية عليه أمه ماريادى مولينا . وبالرغم مما أبدته أمه من الشجاعة فى الذود عن العرش وعن الملك الطفل ، ومن براعة فى تصريف الشئون ، فقد كان عهده عهد اضطراب وفوضى ؛ وعاد النبلاء والمتنافسون فى طلب العرش إلى تدبير الثورات المتعاقبة ، واضطر الملك الطفل وأمّه إلى الفرار من إشبيلية ، والالتجاء إلى حماية أهل آبلّة (آفيلّا) الذين آزره واستقبلوه بترحاب وحماسة . ولما بلغ فرديناند أشده ، استطاع أن يعود إلى عرشه بمؤازرة أصدقائه وأنصاره ، ولكنه أبدى قصوراً وعجزاً فى تسيير الشئون ، كما أبدى عقوقاً ونكراناً لأمه ، التى كفلته وحمته فى طفولته . وفى عهد فرديناند ساءت العلاقات

بين قشتالة ومملكة غرناطة ، وعاد النصارى إلى غزو أراضي المسلمين ، وكان من أعظم الحوادث فى هذا العهد ، استيلاء القشتاليين على ثغر جبل طارق ، سنة ٥٧٠٩ (١٣١٠ م) . وفى سنة ١٣١٢ عاد القشتاليون بقيادة فرديناند إلى غزو الأندلس ، وزحفوا على مدينة جيان ، وضربوا حولها الحصار . ولكن فرديناند توفى فجأة وهو فى خيمته أمام أبواب المدينة المحصورة ، وذلك فى سبتمبر سنة ١٣١٢ م .

فخلفه على العرش ولده الطفل الفونسو (الحادى عشر) ، ولما يبلغ الحول من عمره ، وتولى الوصاية عليه الدون بيدرو والدون خوان وهما زعماء النبلاء . وبالرغم مما كان يسود قشتالة يومئذ من ضروب الإضطراب والفوضى ، فقد اعتمز رهط الأمراء والنبلاء المضى فى غزو الأراضى الإسلامية ، وعات الجند القشتاليون فى بسائط غرناطة ، واستولوا على عدة من الحصون ، وهزموا المسلمين فى موقعة شديدة (١٣١٧ م) . وكان ذلك فى بداية عصر السلطان أبى الوليد اسماعيل . وبعد ذلك بعامين زحف الجند القشتاليون ، بقيادة الدون بيدرو والدون خوان الوصيين وعدد كبير من الأمراء ، على العاصمة الأندلسية ذاتها ، والتقى المسلمون والنصارى على مقربة من غرناطة ، وكانت موقعة هائلة كتب فيها النصر للمسلمين ، وقتل الدون بيدرو والدون خوان ومعظم الأمراء القشتاليين (١٣١٩ م) .

وانتهز المسلمون هذه الفرصة فقاموا بعدة غزوات ناجحة فى أراضى قشتالة ، واستولوا على بعض القواعد والحصون حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . وفى خلال ذلك تفاقمت الأمور فى قشتالة واشتد النزاع بين النبلاء ، واستمرت هذه الحال طوال عهد الوصاية .

ولما بلغ الملك الطفل أشده ، وتولى أمور الملك بنفسه ، أخذت تتكشف صفاته المثيرة شيئا فشيئا . وبالرغم مما أبداه من مقدرة فى ضبط المملكة وتسيير الشئون ، وما قام به من الإصلاحات الإدارية والقضائية ، لتوطيد النظم التى يقوم عليها المجتمع القشتالى ، فقد كان يلجأ إلى أشد أساليب العنف والقمع ، وكان القتل وسيلته المثلى لحماية العرش وحصون الدولة ، وقد زهق على يديه كثير من الأمراء والنبلاء والزعماء ، دون اجراءات ودون محاكمة ، حتى لقب من أجل ذلك

« بالمنتقم » . وكان البلاط القشتالي في عهده مرتعا للفجور والإثم . وكانت الملكة الشرعية الأميرة ماريا البرتغالية تعيش منبوذة في عزلة مطبقة ، وتسيطر على القصر والدولة خليعة الملك اليونورا دي كزمان ، وقد رزق منها الفونسو بعدة أبناء غير شرعيين . وهكذا كانت قشتالة تجوز يومئذ عهدا من الإرهاب ، والانحلال السياسي والاجتماعي .

ومع ذلك فقد كان الفونسو الحادي عشر ملكا قوى البأس والعزم . وكان يضطرم نحو المملكة الإسلامية بمشاريع خطيرة . وكانت غرناطة شعورا منها بالخطر الذي يحدق بها ، قد استغاثت بجارتها القوية وراء البحر مرة أخرى ، وبعث السلطان أبو الحسن المريني جيوشه لنجدة الأندلس ، واجتمعت جيوش الممالك النصرانية ، قشتالة وأراجون للقاء الجيوش المغربية وهزمتها في موقعة دموية في سنة ١٣٣٩م ؛ فاعتزم السلطان أبو الحسن أن يثار لنفسه من تلك الهزيمة وجاز البحر بنفسه إلى الأندلس في أسطول وجيش عظيمين ، واجتمعت الجيوش النصرانية بقيادة الفونسو الحادي عشر ، والتقت بجيوش الأندلس والمغرب على ضفاف نهر سالادو في الجزيرة الخضراء ، ونشبت بين الفريقين موقعة حاسمة هزم فيها المسلمون شرهزيمة ، وسقط معسكر سلطان المغرب ونجيمه في يد النصارى حسبا فصلنا في موضعه ، وكان ذلك في ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠م (جمادى الأولى سنة ٧٤١هـ) ، واستولى النصارى على طريف والجزيرة الخضراء .

واستمرت غزوات النصارى لأراضي غرناطة بضعة أعوام أخرى . وفي سنة ١٣٤٩م زحف القشتاليون على سهول الجزيرة الخضراء . وكان ثغر جبل طارق الذي استولى عليه النصارى مدى حين قد عاد إلى المسلمين ، واعتزم ملك قشتالة أن يحاول استرداده ، فضرب حوله الحصار الصارم ، واستمر الحصار زهاء عام والمسلمون داخل الصخرة صامدين ، وملك غرناطة يربط بجيشه من وراء النصارى . ثم فشا الوباء في جيش النصارى ، وهلك منه عدد جم ، وكان ملك قشتالة في مقدمة الضحايا ، فاضطر النصارى إلى رفع الحصار ، وأنقذت جبل طارق بما يشبه المعجزة (سنة ١٣٥٠م) .

وهكذا توفي الفونسو الحادي عشر ملك قشتالة في إبان قوته ومجده ، ولما

يبلغ الثامنة والثلاثين من عمره ؛ فخلفه ولده بيدرو الثاني الملقب بالقاسى الذى تعرفه الرواية الإسلامية « بدون بطره » . وبيدرو شهير فى الرواية الإسلامية أولاً لأنه هو الملك الذى أوفد إليه المؤرخ الفيلاسوف ابن خلدون سفيرا من قبل ملك غرناطة ، ووصف لنا فى التعريف سفارته لديه وإقامته فى قشتالة (١) . وثانياً لأنه معاصر للوزير ابن الخطيب مؤرخ غرناطة ، وقد تناول أخباره فى تاريخه بتفصيل ووضوح .

ولجأ بيدرو الثاني إلى نفس الأساليب الدموية التى لجأ إليها أبوه فى توطيد سلطانه ، فأسرف فى قتل خصومه ، وبسط على قشتالة حكم إرهاب مروع ، وقيل إنه لجأ إلى قتل زوجه الشرعية بلانش دى بوربون بالسّم ليتزوج من خليلته ، وعهد بإدارة حكومته إلى رهط من اليهود ارتبأباً منه فى أبناء وطنه ، وأنشأ له حرساً من المدجنين . ونشب الخلاف بينه وبين اخوته غير الشرعيين أبناء الينورا دى كزمان ، ولاسيا كبيرهم الكونت هنرى دى تراسمارا . وانحاز الأشراف إليهم ، واضطرت قشتالة مدى أعوام بثورات داخلية ، ثم استحالت إلى حرب أهلية ضروس ، واستطاع الكونت هنرى أن يحصل على معاونة ملك فرنسا ، وأن ينتزع لنفسه عرش قشتالة ، وفر بيدرو واستغاث بالأمير ادوارد ولى عهد إنجلترا المعروف بالأمير الأسود ، فأمدّه بجنده واستطاع أن يسترد عرشه مدى حين . ولكن أخاه الكونت هنرى عاد إلى محاربتة فهزم وقتل فى موقعة مونتييل فى سنة ١٣٦٨ م . وقد عرضنا إلى هذه الحوادث بالتفصيل فى حديثنا عن عصر السلطان محمد الغنى بالله . وقد كانت تربطه ببيدرو الثاني معاهدة صداقة وتحالف ، وكانت غرناطة إلى جانبه فى محتته ، وكان هذه الحوادث مدى خاص فى الرواية الإسلامية عرض إليه ابن الخطيب فى تاريخه على نحو ما فصلنا .

وعلى أثر موقعة مونتييل استقر الكونت هنرى دى تراسمارا مكان أخيه على العرش (١٣٦٨ م) ، وبدأ بذلك ثبت جديد من ملوك قشتالة . وفى عهد استتب الهدوء والنظام فى قشتالة ، وأقبل الأشراف على تأييده ، وكان للمدن التى آزرته فى جهوده لنيل العرش امتيازات خاصة ؛ وكذلك ازدهر البرلمان القشتالى (الكورتيس)

(١) راجع ابن خلدون ج ٧ ص ٣٠٦ وما بعدها .

واشتد ساعده ، ولكنه لم يوفق إلى الحد من طغيان العرش . وأبدى الكونت هنرى فى تسير الشؤون الداخلية مقدره ، وأصاب نجاحا يذكر ، واستطاع فى ميدان الشؤون الخارجية أن يرغم البرتغال على عقد الصلح ، وأن يهزم حملة بحرية فى مياه لاروشل . وكان حكمه على العموم فترة رخاء وأمن . وفى عهده انتهزت مملكة غرناطة فرصة اشتغال قشتالة بشؤونها الداخلية فنظمت قواها ، وأغارت غير مرة على أراضي قشتالة فى غزوات ناجحة ، حسبما أشرنا إلى ذلك فى موضعه .

ولما توفى الكونت هنرى فى سنة ١٣٧٩م ، خلفه على العرش ولده يوحنا (خوان) الأول . وكان الأمير جون أوف جوننت ولد ادوارد الثالث ملك إنجلترا قد تزوج كبرى بنات بيدرو الثانى ، وأخذ يطالب باسمها بعرش قشتالة ، وكادت تضطرم من أجل ذلك حرب أهلية جديدة ، ولكن يوحنا الأول استطاع أن يجتنب هذا الخطر بالتفاهم مع الأمير جون ، والاتفاق معه على أن يقترن ولده بالأميرة كونستانس كبرى بنات الأمير الإنجليزي ، وتم بذلك الزواج اتحاد فرعى الفونسو الحادى عشر ، وزوال خطر الحرب الأهلية المترتب على خصومتهم وتنافسهم حول العرش ؛ وحاول يوحنا الأول من جهة أخرى أن يطالب بعرش البرتغال عقب وفاة ملكها فرديناند سنة ١٣٨٣م باسم زوجته الأميرة بياتريس ، وهى الابنة الوحيدة للملك المتوفى ، وثار من جراء ذلك بين قشتالة والبرتغال حرب هزم فيها القشتاليون فى موقعة «الخبروتا» فى سنة ١٣٨٥م ، واضطر ملك قشتالة أن ينزل عن دعواه .

وتوفى يوحنا الأول قتيلا على أثر سقوطه عن جواده (اكتوبر سنة ١٣٩٠م) فخلفه على عرش قشتالة ولده هنرى الثالث حدثا . وكان سقيا عليلا ، ولم يطل أمد حكمه حينما بلغ الرشيد سوى أعوام قلائل . بيد أنه استطاع فى حكمه القصير أن يوطد النظام والأمن داخل مملكته ، وأن يقضى على شغب الأشراف ، وأن يسترد منهم كل الإقطاعات التى انتزعوها من العرش إبان طفولته . وفى عهده نشبت الحرب حينما بين المسلمين والنصارى ، وانتهت بعقد الهدنة بين الفريقين ، ثم توفى شابا فى أواخر سنة ١٤٠٦م .

فخلفه ولده يوحنا الثانى طفلا فى نحو الثانية من عمره ، ووضع تحت وصاية

أمه الملكة كونستانس الإنجليزية ، وعمه الأمير فرديناند الذى يعرف بفرديناند صاحب أنتكيرة ، نظرا لاستيلائه على هذه القاعدة من المسلمين فى سنة ١٤١٢م . وطال حكم يوحنا الثانى زهاء نصف قرن ، وكان أميرا ضعيف الرأى والعزم سبي ، الخلال ، يعشق اللهو وينفق أوقاته فى حفلات الصيد والفروسة وقرص الشعر ، وكان عمه الوصى فرديناند فى الأعوام الأولى من طفولته ، يقبض على زمام الأمور بحزم وبصيرة . بيد أنه دعى منذ سنة ١٤١٢م إلى تبوى عرش أراجون بقرار من الكورتيس ، فترك قشتالة لمصيرها . وما كاد يوحنا الثانى يبلغ أشده ، حتى بدأ النضال بينه وبين الأشراف من أجل السلطة وفرض الضرائب ، وشغلت قشتالة مدى حين بأمر هذا النضال . وفوض الملك شئون الدولة إلى وزيره وصفيه الفارو دى لونا ، فاستأثر بكل سلطة ، واستطاع أن يوطد نفوذ العرش ، وأن يحقق النظام والأمن . فلما اقترن يوحنا بزوجه الثانية إيزابيلا البرتغالية ، عملت على تحريره من نفوذ وزيره القوى ، وما زالت به حتى أسقطه وأقصاه . ويقال إن هذا التصرف الغادر نغص عليه حياته فى أعوامه الأخيرة . وتوفى يوحنا الثانى فى يولييه سنة ١٤٥٤م فى بلد الوليد ، وقد رزق من زواجه الثانى بابنته إيزابيلا وهى التى تبوأ العرش فيما بعد ، وعرفت بإيزابيلا الكاثوليكية ، وكان لها أعظم شأن فى تاريخ اسبانيا النصرانية .

وفى معظم عصره ساد نوع من السلام والتهادن بين غرناطة وقشتالة ، وكانت حفلات الفروسية الأندلسية الشهيرة تجمع بين الأشراف والسادة من الفريقين ، فى جو من التعاطف والمودة . ولكن غرناطة مالبت أن شغلت بثوراتها الداخلية التى تعاقبت حول العرش فى عصر السلطان الأيسر وخلفائه . وكان بلاط قشتالة يلعب عندئذ دوره المأثور ، فى إذكاء عوامل الخلاف بين المتنافسين من أمراء غرناطة ، وتغليب البعض على البعض الآخر ، والتمهيد بذلك لإضعاف مملكة غرناطة والقضاء عليها .

وخلف يوحنا الثانى ولده هنرى الرابع ، وكان كأبيه أميرا ضعيفا منحل الخلال ، حتى انه لقب « بالعاجز » . وكان عصره عصر ركود وفوضى ، ومع ذلك فان قشتالة لم تقعد فى عهده عن المضى فى غزو الأراضى الإسلامية وإرهاق

مملكة غرناطة التي اضطربت شئونها وسادتها الخلافات الداخلية . واضطر ملك غرناطة السلطان ابن اسماعيل أن يتعهد بتأدية الجزية لقشتالة . وكان من أعظم الحوادث في عصر هنرى الرابع استيلاء القشتاليين نهائيا على ثغر جبل طارق (١٤٦٢م) حسبما ذكرنا ذلك في موضعه . وتوفى الملك هنرى فى سنة ١٤٧٤م . وعلى أثر وفاته عارض النبلاء فى جلوس ابنته الوحيدة خوانا على العرش لما يحيط بنسبتها إليه من الريب . وهنا تقدمت أخته الأميرة إيزابيلا مطالبة بعرش قشتالة ، وكانت قد تزوجت فى سنة ١٤٦٩م من ابن عمها الأمير فرديناند الأرجونى ، وذلك بالرغم من معارضة أخيها الملك هنرى ، وكان لهذا الزواج أثر بعيد المدى فى سير التاريخ الإسبانى حسبما نفصل بعد .

٢ - أراجون

لما توفى چايم الأول أو چايم الفاتح ملك أراجون فى سنة ١٢٧٤م ، خلفه على العرش ولده بيدرو الثالث . وتبدأ منذ عهد هذا الملك صفحة جديدة فى تاريخ أراجون ، حيث يمتد سلطان العرش الأرجونى وإسبانيا النصرانية فيما وراء البحر ، إلى صقلية وجنوب إيطاليا (مملكة نابل) . وذلك أن بيدرو الثالث تزوج الأميرة كونستانس ابنة مانفرد دوق بنفونتوم وصاحب مملكة نابل وصقلية باعتباره سليل بيت هوهنشتاوفن الإمبراطورى . وكان البابا يود التخلص من سلطان أولئك الأمراء الألمان ، فدعا شارل دانجو ولد ملك فرنسا إلى اعتلاء عرش نابل ، فاستجاب شارل إلى الدعوة وغزا نابل وقتل صاحبها مانفرد . وهنا تقدم بيدرو الثالث مطالبا بعرش نابل باسم زوجته ، ونشب بين الحزب الأرجونى وبين حزب شارل دانجو نزاع طويل الأمد . وفى النهاية استطاع بيدرو أن يغزو صقلية وأن ينتزعها من يد الفرنسيين ، واسبغ عليه هذا الفتح لقب « الأكبر » . ولما حاول الفرنسيون غزو قطلونيه تأييدا لشارل دانجو ردهم بيدرو وأخفقت المحاولة . وكان افتتاح صقلية أول خطوة فى بسط السيادة الإسبانية على جنوب إيطاليا فيما بعد . ولما توفى بيدرو الثالث فى سنة ١٢٨٥م ، كانت سيادة أراجون تمتد فضلا عن صقلية إلى بعض أنحاء بروقانس فى جنوبى فرنسا .

وخلفه على العرش ولده الفونسو الثالث ، وكان ضعيفا سبيء الخلال ، ولم يطل

أمد حكمه سوى بضعة أعوام . وفي عهده اشتدت وطأة النبلاء وكثرت مطالبهم ، وعجز الفونسو عن مقاومتهم ، وكان تخاذل العرش أمام طغيان الأشراف على هذا النحو ، سببا في اضطراب الأمور في مملكة أراجون .

وتوفي الفونسو الثالث سنة ١٢٩١م دون عقب لأنه لم يتزوج ؛ فخلفه على عرش أراجون أخوه الأصغر چايم الثاني ، وكان يتولى عرش صقلية منذ وفاة أبيه في سنة ١٢٨٥ م حتى وفاة أخيه الأكبر . ورأى چايم أن يوفق بين أراجون وبين مملكة نابل ، فزوج من بلانكا ابنة شارل دانجو وصاد السلم حينما بين أراجون وفرنسا . واستطال حكم چايم حتى سنة ١٣٢٧م ، وكان عهده عهد اصلاح واستقرار . ثم خلفه في الملك ولده الفونسو الرابع ، فحكم زهاء تسعة أعوام ، وكان أميرا ضعيفا . وفي عهده زاد طغيان النبلاء ولاسيما في أراجون وبلنسية ، واشتد ارهاقهم للعرش حتى انتهوا بارغام الفونسو على اصدار المرسوم المعروف بمرسوم الإتحاد ، وفيه يعترف العرش لهم بأنه لا تجوز معاقبتهم فيما يتعلق بالنفس أو المال إلا بحكم القانون ، وأن يكون لهم حق اختيار القاضى الأكبر الذى يصدر أحكامه مستقلا عن مصادقة العرش ، وأن يقوموا بالدفاع المسلح عن أنفسهم حينما شعروا بما يهددهم ؛ وكان في صدور هذا المرسوم افتئات لم يسبق له مثيل على سلطان العرش .

وكان بيدرو الرابع الذى خلف أباه الفونسو على العرش سنة ١٣٣٦ م . أميرا قويا وافر العزم . وكان يتوق إلى كبح جماح أولئك النبلاء الذين طال طغيانهم وإلغاء ذلك المرسوم الذى أرغم أبوه على اصداره . ولكن النبلاء تمسكوا بموقفهم ، وتأهبوا للدفاع عن امتيازاتهم ، واضطرت أراجون بحرب أهلية بين العرش والنبلاء انتهت بفوز بيدرو الرابع على النبلاء الخوارج في موقعة أيبلا سنة ١٣٤٨ م . وأمعن بيدرو بعد ذلك في مطاردة خصومه وقتلهم ، وأرغم النبلاء على التنازل عن مرسوم الإتحاد ، وقام بنفسه بتمزيقه امام مجلس النواب في سرقسطة ، وبلغ من تلهفه على تمزيقه أن جرح يده بخنجره ، وصاح عندئذ بان الدم الملكى حقيق بان يجرى في سبيل إبطال مثل هذه الوثيقة ، وعرف من جراء ذلك « بصاحب الخنجر » . على أن بيدرو كان حكيما في ظفره ، فقد ترك للنبلاء الحق في أن يحاكموا بمقتضى القانون ، وأن تكفل حمايتهم من الأحكام التعسفية ، وأكد احترامه لاستقلال القضاء ، وترك

للمدن حتى الإعراب عن رأيها . وفي العام التالي (١٣٤٩ م) استطاع بيدرو الرابع أن ينتزع الجزائر الشرقية (البليار) من ابن عمه چايم الثالث ، بعد أن هزم وقتل في موقعة دموية ، وأعيدت الجزائر الشرقية إلى مملكة أراجون مرة أخرى ، وكان چايم الفاتح قد تركها بمقتضى وصيته لچايم أحد أولاده ، وقامت بها مملكة مستقلة مدى حين . ونشبت الحصومة بعد ذلك بين بيدرو ملك أراجون وبيدرو القاسى ملك قشتالة ، وانحاز ملك أراجون إلى الكونت هنرى دى تراسمارا المطالب بعرش قشتالة ، واستمر يعاونه بالمال والجند حتى انتهى أخيرا بالتغلب على أخيه بيدرو القاسى ، والجلوس على عرش قشتالة سنة ١٣٦٩ م حسبما فصلنا من قبل . وظفر بيدرو كذلك باسترداد صقلية فى سنة ١٣٧٧ م ، ولكنه منح حكمها لابنه مارتن ، وزوج بيدرو ابنته الينور ليوحنا الأول ملك قشتالة ، فكان ذلك فيما بعد سببا فى انتقال عرش أراجون إلى بيت قشتالة الملكى حينما انقرض عقبه من الذكور .

وتوفى بيدرو الرابع سنة ١٣٨٧ م وأراجون أوفر ما يكون قوة واستقراراً ، فخلفه ولده يوحنا الأول . وكان أميراً ضعيف الخلال والعزم ، يعشق الأدب والشعر وتضجره مهام الملك ، ولم يطل أمد حكمه سوى بضعة أعوام ، إذ توفى فى حادث سقوطه عن جواده سنة ١٣٩٥ م .

فخلفه أخوه الأصغر مارتن الأول . وكان حكمه عهد هدوء واستقرار . ومنح عرش صقلية لولده مارتن . وفى عهده سادت علائق المودة والصدقة بين أراجون وغرناطة ، وعقدت بين المملكتين معاهدة صداقة وتحالف (سنة ١٤٠٥ م) . ولما توفى مارتن فى سنة ١٤١٠ م دون عقب ، ثارت حول وراثة عرش أراجون مشكلة دقيقة ، وتولى مجلس الكورتيس (البرلمان) حكم البلاد ، واستمر مدى عامين فى مباحثات ومناقشات مستمرة حول مسألة العرش ، وفى النهاية أصدر قراره باختيار الأمير فرديناند القشتالى ولد يوحنا الأول ملك قشتالة ، والمعروف بفرديناند صاحب أنتكيرة ، للجلوس على عرش أراجون ، وذلك باعتباره ولد الملكة الينور ابنة بيدرو الرابع ملك أراجون واخت الملك مارتن ، فلبى فرديناند الدعوة وتحلى عن وصايته لابن أخيه يوحنا الثانى ملك قشتالة ، وجلس على عرش أراجون سنة ١٤١٢ م ، وبدأ بذلك ثبت جديد من ملوك أراجون .

ولم يطل أمد حكم الملك فرديناند سوى أربعة أعوام ، وكان أميراً قوياً الحلال ذا مقدرة وفطنة في تصريف الشؤون ، ولكنه كان يضطرم بروح السلطان المطلق التي ألفها في قشتالة ، ويتبرم بالحدود والقيود التي وضعها الدستور الأرجوني للحد من سلطان العرش . والواقع أن الحريات الدستورية كانت في أراجون أرسخ وأكثر نضوجاً منها في قشتالة ، وكان ذلك يرجع إلى طبيعة الشعب الأرجوني ، وشدة مراسه ، وتعلقه بمبادئ الحرية ، وهي صفات لم تكن تروق في تلك العصور للملوكية رجعية ، تحرص على سلطانها المطلق .

ولما توفي فرديناند الأول في سنة ١٤١٦ م ، خلفه على عرش أراجون ولده ألفونسو الخامس المعروف بالفونسو «الشهم» . على أن الفونسو الخامس لا يكاد يمثل في تاريخ أراجون ، وإنما يمثل بالأخص في تاريخ إيطاليا ومملكة نابل . وقد ورث الفونسو عرش صقلية مع عرش أراجون ، واستطاع بعد حوادث وخطوب جمة أن يفتتح مملكة نابل وأن يجلس على عرشها (١٤٤٢ م) . واستقر الفونسو في نابل ، وترك حكم أراجون والأراضي التابعة لها لأخيه يوحنا ، يحكمها باسمه ومن قبله . وبسط ألفونسو على نابل وصقلية حكمه الفخم ، وسطع بلاطه بين القصور الإيطالية ، وكان نصيراً للعلوم والآداب والفنون ، يأخذ في تعضيدها بقسط وافر ، شأن معاصريه من الأمراء والبابوات الذين ساهموا في بعث النهضة ، وسطعوا في عصر الإحياء (الرينسانس) . ولما توفي في سنة ١٤٥٨ م ، دون عقب شرعي ، ترك مملكة نابل لولده غير الشرعي فرديناند ، وجلس أخوه يوحنا على عرش أراجون باسم يوحنا الثاني .

وكان يوحنا الثاني أميراً وافر العزم والمقدرة ، ولكنه كان في الوقت نفسه طاغية خطر الأهواء والأساليب ؛ وشغل يوحنا عن شئون أراجون الداخلية بكفاحه في سبيل الحصول على عرش ناغار ، باعتباره زوجاً ووريثاً لمملكتها بلانش ، وكذلك شغلته ثورة ولده الأمير كارلوس المعروف بأمر فيانا مدى حين ، وكان ينافس أباه في الحصول على عرش ناغار ، ويرى أنه أحق منه بميراث أمه . وحاول يوحنا بتحريض زوجته الثانية چنه هنريكير أن يجرم ولده من نيابة العرش ، فنار إلى جانبه فريق من الشعب الأرجوني ، ونشبت بين الأب والإبن عدة وقائع انتهت ٩ أندلس

بوفاة الإبن في سنة ١٤٦١م . وقيل إنه توفي مسموماً بيد زوج أبيه . وكذلك ثار الشعب القطلوني معلناً استقلاله . وشغل يوحنا بضعة أعوام حتى استطاع أن يخمّد هذه الثورة الخطيرة (١٤٧٢م) . وكذلك نشبت الحرب بين أراجون وفرنسا من أجل ولاية روسيون الفرنسية وهزم يوحنا غير مرة . على أن أعظم مهمة شغلت يوحنا في أواخر عهده هي السعي إلى تزويج ولده فرديناند من زوجته الثانية ، بالأميرة إيزابيلا القشتالية ، وقد كلل سعيه بالنجاح في تحقيق هذا المشروع الخطير الذي كان إيذاناً باتحاد أراجون وقشتالة في مملكة اسبانية موحدة .

واستطال حكم يوحنا الثاني حتى سنة ١٤٧٩م ، وقد بلغ الثمانين من عمره وكف بصره ، فترك العرش لولده فرديناند الذي قدر له أن يضطلع مع زوجته إيزابيلا بأعظم دور في العمل لإنشاء اسبانيا الكبرى .

٣ - اسبانيا النصرانية المتحدة

لما توفي هنري الرابع ملك قشتالة في سنة ١٤٧٤م ثارت حول وراثة العرش مشكلة دقيقة . ذلك أن الملك هنري لم يترك سوى ابنة طفلة هي خوانا (چنه) . وكانت مع ذلك يشك في نسبتها إليه ، وتنسب أبوتها إلى صديقه وصفيه الدوق بلتران دي لاكويفا ومن ثم كان اسمها الذائع خوانا بلترانيجا . وكان يناصرها فريق صغير من النبلاء . بيد أن الأميرة إيزابيلا أخت الملك هنري كانت بالعكس تتمتع بعطف الشعب القشتالي ، ويناصر وراثتها للعرش فريق كبير من النبلاء ، وكان أخوها الملك هنري قد اعترف بحقها في العرش ، وأيدها الكورتيس (مجلس النواب) في ذلك عقب وفاة أخيها الفونسو في سنة ١٤٦٨م ، ومن ثم فقد كان حقها في وراثة العرش أمراً واضحاً .

وكانت الملكة إيزابيلا قد تزوجت قبل وفاة أخيها ببضعة أعوام ، بابن عمها الأمير فرديناند الأراجوني ولد الملك يوحنا الثاني . ولهذا الزواج الذي مهد لتوحيد اسبانيا النصرانية قصة طريفة . فقد كانت الأميرة إيزابيلا مذكبرت مطمح الأنظار ، لما يؤهلها لعرش قشتالة من الاحتمالات القوية . وكان يوحنا الثاني ملك أراجون يتوق إلى خطبتها لابنه فرديناند لما يربط أسرتي قشتالة وأراجون من أواصر القرابي الوثيقة ، ويقرب سبل الاتحاد بين الفريقين . وكان فرديناند أول المتقدمين لخطبة

الأميرة ، ولكن أخوها الملك هنرى لم يكن راضياً عن ترشيحه ؛ وكان ينافسه في خطبتها عدة من الأمراء والنبلاء منهم كبير فرسان قلعة رباح ، وقد وافق أخوها الملك هنرى على زواجه منها ، ولكنه توفي قبل إتمامه ؛ وكذلك خطبها الفونسو ملك البرتغال وأمراء آخرون ، ولكن إيزابيلا رغبت عنهم جميعاً ، وآثرت بعهد إمعان النظر أن تستجيب إلى دعوة ابن عمها فرديناند الأرجونى ، لنفس البواعث التى دعت إلى تقدمه إليها ، ولأنه يجمع بينهما من الحد بيت ملكى واحد . ووُضعت شروط الزواج بين الفريقين سراً نظراً لمعارضة الملك هنرى ، وفيها يتعهد فرديناند بأن يحترم قوانين قشتالة وتقاليدها ، وأن يجعل مقر إقامته فيها ، والا يغادرها دون إذن إيزابيلا ، والا يجرى أى قرارات أو تعيينات فى المملكة دون إذنها ، وتعهد بالأخص بأن يتابع الحرب ضد المسلمين . وفى اكتوبر سنة ١٤٦٩ عقد الزواج فى بلد الوليد ، حيث كانت تقيم الأميرة ، فى حفل خاص لم يشهده سوى قليل من الأصدقاء ، وأخطرت الأميرة أخاها بعقد الزواج بكتاب تشرح فيه البواعث التى حدثت بها إلى إتمامه . وهكذا حققت أمنية ملك أراجون وأثبتت الحوادث التالية بعد نظره وخطورة مشروعه .

وأعلنت إيزابيلا عقب وفاة أخيها ملكة لقشتالة وليون فى سقوية حيث كانت تقيم ، وذلك فى ديسمبر سنة ١٤٧٤م ، وحدثت مدن أخرى حذو سقوية ، ولكن الأمر لم يكن هيناً . ذلك أنه كان ثمة فريق من النبلاء يناصر الأميرة خوانا ابنة الملك المتوفى ، وكان زوجها فرديناند يطمح فوق ذلك إلى انتزاع العرش لنفسه باعتباره آخر عقب من الذكور لبيت قشتالة الملكى ، ولكن إيزابيلا تمسكت بحقها ، وانتهى الأمر بينهما بالاتفاق على مزاولة الملك المشترك تعتبر فيه إيزابيلا ملكة أصلية لقشتالة ، لها الرأى الأول فى الحليل من الشئون ، ويجرى القضاء وتسلك العملة باسميهما . وكان خصوم إيزابيلا فى ذلك الحين وعلى رأسهم مطران طليطلة ، قد تفاهموا مع ملك البرتغال الفونسو الخامس على تأييد سعيهم فى تنصيب خوانا ملكة وهى ابنة أخته ، وعلى الاقتران بها . وفى مايو سنة ١٤٧٥ غزا ملك البرتغال قشتالة بقواته ، واخترق هضابها الشمالية حتى مدينة سموره ، وبادر فرديناند وإيزابيلا بالسير فى قواتهما إلى لقائه ، واشتبك الفريقان على مقربة من تورو بجوار سموره ، فارتد

القشتاليون في البداية . ولكن الفونسو لم يبادر إلى الاستفادة من تفوقه ، وطال الصراع بين الفريقين بضعة أشهر . وفي النهاية رجحت كفة القشتاليين . واضطر ملك البرتغال أن يرتد أدراجه (فبراير سنة ١٤٧٦ م) .



فرديناند الخامس (الكاثوليكي) ملك أراجون

وهكذا انتصر فرديناند وإيزابيلا على خصومهما ، واستقرا معا على عرش قشتالة بلا منازع . وفي سنة ١٤٧٩ ارتقى فرديناند عرش أراجون على أثر وفاة أبيه يوحنا الثاني ، وبذلك اتحدت المملكتان الاسبانيتان في ظل عرش واحد . بعد أن فرقت بينهما المنافسات والخطوب أحقابا . واجتمعت كلمة اسبانيا النصرانية بعد أن طال افتراقها ، وبدأت اسبانيا في ظل فرديناند وإيزابيلا أو في ظل الملكين الكاثوليكين حسبا لقبها بعد . عصرا من القوة والعظمة والسؤدد لم تشهده في تاريخها من قبل ، وهو بحق فاتحة عصرها الذهبي .

وكان فرديناند الخامس أو فرديناند الكاثوليكي من أعظم ملوك اسبانيا
صراية وأوفرهم عزيمة وهمة . وكان يتمتع بمقدرة فائقة ، سواء في الإدارة أو في
بأدين الحرب والسياسة . بيد أن هذا الجانب الحسن من خلاله كانت تغشاه



إيزابيلا الكاثوليكية ملكة قشتالة

صفات سيئة ، فقد كان فرديناند أميراً لاوازع له ، يجنح في سياسته إلى الغدر
ومجانبة الوفاء ، وكان رجل الفرصة السانحة . يلتمس إلى تحقيق أطماعه العظيمة
أى الوسائل مهما كانت تجانب المبادئ الأخلاقية المقررة أو مقتضيات الفروسة
والوفاء . وسوف نرى كيف تتجلى هذه الخلال البغيضة في تصرفاته وأساليبه في
معاملة الأمة الأندلسية المغلوبة .

وكانت زوجته الملكة إيزابيلا تتمتع أيضاً بكثير من الذكاء والعزم . وكانت
تثير برقتها وتواضعها واحتشامها حب الشعب القشتالي واعجابته . بيد أنها كانت

تجيش بنزعة دينية عميقة تذهب أحيانا مذهب التعصب المضطرم ، وكانت تقع تحت تأثير الأخبار المتعصبين وتنزل عند تحريضهم وتوجيههم ، وكان مشروع غزو مملكة غرناطة والقضاء على الأمة الأندلسية ، يدكى في نفس هذه الملكة الورعة التي تنعت أيضا « بالكاثوليكية » أشنع ضروب التعصب ، ويحملها على مؤازرة ديوان التحقيق الإسباني Inquisition وقرار كل ما جنح إلى ارتكابه باسم الدين من الأعمال والجرائم المثيرة .

وفي الوقت الذي جلس فيه فرديناند وإيزابيلا على عرش اسبانيا القوية الموحدة ، كانت مملكة غرناطة تدخل بعد سلسلة طويلة من الحروب الأهلية في مرحلة النزاع الأخيرة . وكان يجلس على عرشها وقتئذ السلطان على أبو الحسن ولد السلطان محمد ابن اسماعيل . وكانت مملكتنا قشتالة وأراجون قد شغلنا مدى حين بطائفة من الاضطرابات والحروب الداخلية المتعلقة بوراثة العرش وغيرها ، مما سبق أن فصناناه في مواضعه ، فلم تسعفهما الفرص للاستمرار في محاربة المسلمين . ولكن عهد الفتنة والخصومات الداخلية انتهى بجلوس فرديناند وإيزابيلا على عرش المملكة الإسبانية المتحدة . وكان شهر الحرب على مملكة غرناطة من أهم الأغراض القومية المشتركة التي تعاهد الملكان على الاضطلاع بها حسبما قدمنا ، ومن ثم فانه ما كادت تستقر شئون قشتالة الداخلية ، حتى أخذ الملكان « الكاثوليكيان » يستعدان لمحاربة المسلمين بكل ما أوتيا من قوة وعزم . وهنا نقف في سرد تاريخ اسبانيا النصرانية لنعود إلى استئناف حديثنا عن مملكة غرناطة والمأساة الأندلسية في موضعها .